محمد سلماوى

نجيب محفوظ
المحطة الأخيرة

دار الشروق

نجيب محفوظ

المحطة الأخيرة

صورة الغلاف
بعدسة الفنان محمد حجازى

رقم الإيداع ٢٢١٩٨/٢٠٠٦
الترقيم الدولى ISBN 977 - 09 - 1903 - 9

الطبعة الأولى
٢٠٠٦م
الطبعة الثانية
٢٠٠٧م

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

نجيب محفوظ

المحطة الأخيرة

محمد سلماوى

دار الشروق

إهداء

إلى أول من قرأ مسودة هذا الكتاب . .

إلى أم كلثوم وفاطمة نجيب محفوظ

محمد سلماوي

تقديم

أن يعيد الإنسان بعث تجربة أليمة، قد يكون أشد ألما من التجربة ذاتها، لأنه في المرة الأولى يفاجأ بها، أما في الثانية فهو الذي يستدعيها لحظة بلحظة، وحدثًا بحدث، فيتضاعف إحساسه بها.

تلك هي قصة هذا الكتاب الذي حاولت أن أستدعي بين صفحاته تجربة الـ ٤٥ يوما الأخيرة في حياة أديبنا الراحل «نجيب محفوظ»، من لحظة دخوله المستشفى يوم الأحد ١٦ يوليو ٢٠٠٦، إلى أن ووري التراب يوم الخميس ٣١ أغسطس ٢٠٠٦، بكل ما تضمنته تلك التجربة من وخزات ألم سددها لنا القدر، وما شهدته أيضا من لحظات بهجة أشاعها نزيل الغرفة ٦١٢ بين زائريه.

ورغم أنني التزمت في معظم الأحيان بتسجيل وقائع ما حدث دون أن أتدخل بالتعليق أو التفسير، إلا أنني كنت أعرف أن بعض أحداث هذه التجربة ربما فضل البعض أن تظل طي الكتمان، لكنها تجربة شاء القدر أن أكون شاهدها، ولم أكن أستطيع أن أكتم الشهادة.

على أن هذا الكتاب ليس مجرد يوميات الفترة التي قضاها الأستاذ بالمستشفى قبل رحيله، بقدر ما هي محاولة - من خلال هذه اليوميات - لتقديم صورة رجل لم يكن كمثله أحد، لا في أخلاقه السامية، ولا في شخصيته الفريدة، ولا في إنجازه الأدبي غير المسبوق.. إنه محاولة لتقديم رؤية صادقة للرجل من خلال علاقة ممتدة جمعتني به منذ قابلته أول مرة في السبعينيات، وحتى حملت نعشه على كتفي بعد ذلك بأكثر من ثلاثة عقود.

فهل وفيت الشهادة حقها؟

لن أدعى أننى فعلت، فتلك شهادة لا يستطيع كتاب واحد أن يحققها، لكننى على الأقل وضعت لبنتها الأولى بين دفتىْ هذا الكتاب الذى هو أول محاولة لسرد تفاصيل المحطة الأخيرة فى حياة أديبنا الأكبر «نجيب محفوظ».

محمد سلماوى

١

اتصل بى الحاج «محمد صبرى» فى منزلى صباح يوم الأحد ١٦ يوليو ليسألنى مفزوعا : «ماذا حدث للأستاذ؟ لقد ذهبت كعادتى كل صباح لأقرأ له الصحف، فأخبرنى أفراد الحرس أنه تم نقله إلى المستشفى، وأنه لا أحد بالمنزل!»، فهدّأت من روعه، وطمأنته بأن الأستاذ بخير، وأننى ذاهب حالا لرؤيته بالمستشفى.

وكنت فى الساعة السادسة من مساء اليوم السابق قد توجهت كعادتى كل يوم سبت إلى لقائى المعتاد مع أديبنا الكبير فى منزله لأجرى معه حوارنا الأسبوعى لجريدة «الأهرام»، ثم جلسنا بعد ذلك نتحدث فى شتى الموضوعات كما تعودنا.

فى هذه المرة دار الحوار حول الوضع فى لبنان بعد العدوان الإسرائيلى الذى دمر الجنوب تماما، وشرد سكانه، وراح ضحيته مئات من الرجال والنساء والأطفال.

كان الأستاذ مستاءً جدا مما حدث، وقال: «أعوذ بالله! إنها أعمال فظيعة جدا. كيف يتحول الدمار إلى هدف فى حد ذاته؟!».

لم تكن حالته النفسية على ما يرام. كان شارد الذهن معظم الوقت، وكانت حروف الكلمات تخرج من بين شدقيه مثقلة بالحزن والأسى.

لم يكن قد مضى على لقائنا إلا حوالى نصف الساعة، وكان المساء لا يزال ممتدا أمامنا، ولم أكن أريد أن نمضى لقاءنا كله فى الحديث عن المآسى التى تحدث فى لبنان.

وضعت زوجته السيدة «عطية الله» أمامى صينية مملوءة بقطع الشوكولاتة،

فسألنى الأستاذ: «ما هذا؟». . لم يكن نظره يسعفه فى الآونة الأخيرة كى يرى كل ما يريد. قلت: «إنها شوكولاتة». ثم أضفت مداعبا: «تأخذ واحدة؟»، فضحك لأول مرة، لأن آخر مرة تناول فيها الشوكولاتة كانت قبل حوالى ٤٥ عاما حين طلب منه الأطباء الإقلاع عن تناول جميع السكريات بعد إصابته بمرض البول السكرى. وقد امتثل لتعليمات الأطباء ولم يتناول أية سكريات لقرابة نصف القرن. كان «نجيب محفوظ» مريضا مثاليا يتبع تعليمات الأطباء بحذافيرها، وكان ذلك جزءا من شخصيته الملتزمة والمحبة للترتيب والنظام.

قال لى: «لقد أحضر لى الأولاد (يقصد ابنتيه أم كلثوم وفاطمة) ذات مرة شوكولاتة خاصة بمرضى السكر، لكنى لم أسرف فى أكلها، فأنا لم أكن من عشاق الشوكولاتة قبل إصابتى بالسكر».

ثم روى لى كيف اكتشف بالصدفة البحتة إصابته بمرض السكر، فقال: «كنت قد ذهبت لعمل بوليصة تأمين على الحياة حين أقبلت على الخمسين، وبعد أن ملأت استمارة البيانات أخضعونى لفحوصات طبية استمرت يوما بطوله، وفى نهايته وبّخونى قائلين: لماذا لم تذكر فى الاستمارة أنك مصاب بمرض البول السكرى؟ ولم أكن حتى تلك اللحظة أعرف أننى مصاب بهذا المرض. كنت أعرف أن السكر يمكن أن يأتى نتيجة صدمة قوية، وقد صُدمت مما سمعت منهم، فقلت: لو لم أكن مصابا بالسكر فإن مفاجأتكم هذه كانت كافية لإصابتى به!».

قلت: «هل يضايقك هذا المرض؟»، قال: «لا، على الإطلاق، أنا لست ممن يتذمرون من المرض، يكفى أن تكون مطيعا للطبيب وتتبع التعليمات ولن تشعر بأى ضيق. إن بعض أصدقائى لا يصدقون أننى مصاب بمرض السكر لأننى أمارس حياتى بشكل طبيعى جدا، فأنا ألتزم بما قاله لى الطبيب فى هذا الشأن، حتى أصبح النظام الغذائى الذى نصحنى به عادة لا أحيد عنها، ومع الوقت نسيت أنا أيضا أننى مصاب بهذا المرض».

ثم تطرق حديثنا إلى الطبعة الجديدة من «أحلام فترة النقاهة» التى كانت تستعد

«دار الشروق» لإصدارها متضمنة «الأحلام» الجديدة التى نُشرت بعد نفاد الطبعة الأولى، وكانت «الأحلام» قد وصلت بذلك إلى رقم الـ ٢٠٠ .

قلت إنها فى المطبعة، وقد سألتُ عنها فى اليوم السابق فقيل لى إن النسخة الأولى منها ربما تكون جاهزة فى الأسبوع المقبل، فسألنى: «هل أعطيتهم الأحلام الستة التى أخذتَها منى فى العام الماضى لتُنشر فى العدد الأسبوعى للأهرام؟». قلت له: «نعم، فالطبعة الجديدة ستتضمن كل الأحلام التى نُشرت حتى الآن»، فسكت قليلا ثم سألنى: «وماذا عن الطبعة الفرنسية؟». قلت: «ستُطرح فى الأسواق الفرنسية فى ديسمبر المقبل لتتوافق فى نفس الشهر مع عيد ميلادك واحتفالات عيد الميلاد المجيد».

شعرت من خلال حديثنا عن «أحلام فترة النقاهة» أن الأستاذ «نجيب» قد عاد من مكان بعيد كان قد تاه منى فيه، إذ لم يعد شارداً كما كان فى بداية الجلسة. وحين نهضت لأودعه فى نهاية اللقاء كان قد انفرجت أساريره، وقال لى: «ما تقعد شوية، الكلام لسه ما خلصش، والشوكولاتة لسه بحالها!»، ثم قال للسيدة قرينته، والتى لم يكن يناديها أمام الناس إلا بكلمة «مدام»: «ما تجيبى له حاجة يشربها يا مدام».

كنت فى الأحوال العادية أقول له: «سأعود إليك السبت القادم»، فيقول لى: «لا تتأخر»، وأمضى. أما اليوم فقد أحسست أن حالته النفسية تستوجب أن تمتد جلستنا قليلا، فاستجبت لطلبه وعدت إلى مجلسى، وإذا به يقول لى بمجرد أن جلست: «أصلى جانى حلم امبارح!»، قلت له: «ما هو؟»، فأسمعه لى بصوته، وسجلته على جهاز التسجيل الذى كنت أذهب إليه به.

كان الأستاذ يملى هذه «الأحلام» على «الحاج صبرى» كل يوم ثلاثاء، لذلك فقد كان يقوم بحفظ كل «حلم» يجيئه عن ظهر قلب، وبالطريقة التى يريد كتابته بها، إلى أن يأتى يوم الثلاثاء فيملى «الأحلام» التى حفظها، وبعد أن يكتبها الحاج صبرى كان يقرؤها على الأستاذ، فيجيزها ويضعها فى مظروف كبير بدرج مكتبه

مع بقية «الأحلام» التى كُتبت قبلها . . فإذا جاء الأسبوع الأول من الشهر، بعث بثلاثة منها إلى مجلة «نصف الدنيا» واحتفظ بالباقى.

وقد توافرت لدىَّ تسجيلات لعدد من هذه «الأحلام» على مدى السنوات القليلة الماضية، وكثيرا ما كنت أعود إلى جهاز التسجيل لأستمع إليها بصوته ، لكنى لم أكن أعلم أن هذا سيكون «الحلم» الأخير، وأن تلك ستكون آخر الزيارات التى ظللت أقوم بها مساء كل سبت للمنزل رقم ١٧٢ بشارع النيل بالعجوزة طوال ما يقرب من ١٢ عاما منذ وقعت له محاولة الاغتيال الآثمة يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٩٤ ، فقد تسبب الحادث فى إصابة يده اليمنى - يد الكتابة - بعجز جزئى أوقفه عن الكتابة، فتحول عموده الأسبوعى فى «الأهرام» بناءً على طلبه إلى حوار أجريه معه أسبوعيا ليُنشر فى نفس مكان عموده القديم.

ولقد سألته آنذاك عن سبب اختياره لى، فقال: «لأنك مختلف عنى، فأنا ابن ثورة ١٩١٩ ، وأنت تنتمى لجيل ثورة ١٩٥٢ . . وأنا كاتب روائى، وأنت كاتب مسرحى، وأنا اشتهرت بالأسلوب الواقعى فى الأدب، وأنت تميل إلى مسرح العبث . . لذلك فالحوار بيننا سيكون ثريا، فأنا لا أريد شخصًا يتفق معى فى كل شىء، وكل ما أقوله له يرد عليه بآمين!».

لم تتوطد علاقتى بالأستاذ - والتى امتدت لأكثر من ٣٠ عاما - مثلما توطدت خلال تلك السنوات الـ ١٢ الأخيرة، والتى كنت أنتظر فيها موعد يوم السبت هذا من أسبوع إلى أسبوع بمثل ما كان ينتظره هو . كنت أعلم أنه عن طريق ذلك الحديث الأسبوعى كان يشعر أن علاقته بالقراء لم تنقطع، وكنت حريصا كلما وصلنى خطاب من قارئ حول ما يكتبه أن أقرأه عليه مَهْمَا كان محتواه بسيطا أو غير مهم، حتى أحافظ على تلك العلاقة التى كنت أشعر أنه يعتز بها كثيرا . . وكنت كثيرا ما أدفع ثمن اعتزازه هذا، إذ لم يكن يصله خطاب إلا ويصر على الرد عليه، وفى السنوات الأخيرة كان يعهد إلىَّ بهذه المهمة، فلم أكن آتى إليه فى الأسبوع التالى إلا ويسألنى: «هل أرسلت الخطاب للقارئ الذى كان يطلب نسخة من رواية بداية ونهاية؟»، أو يسألنى: «هل أرسلت الخطاب إلى الشاب الذى بعث لنا بقصته؟».

وقد اكتشفت أن الأستاذ «نجيب» كان لسنوات طويلة يقوم بالرد بنفسه على هذه الخطابات. كان يكتب الرد بخط يده، وقد وصلني عدد من أصول وصور تلك الخطابات التي ظل يحتفظ بها أصحابها لسنوات ثم قرروا إهداءها لي. ولست أعرف كيف كان أديبنا الأكبر يجد الوقت للرد على كل تلك الخطابات رغم برنامجه اليومي الذي نظم كل دقيقة منه، والذي كان يتبعه لسنوات دون تغيير.

في تلك الجلسة الأخيرة قرأت عليه أحد هذه الخطابات الذي لم يكن فيه أكثر من ثناء من أحد القراء على ما تفضل به من آراء في حديث سابق. قال لي: «اترك لي هذا الخطاب. سأطلب من الحاج صبري أن يرد عليه، فهو لا يتطلب أكثر من كلمة شكر لا أريد أن أثقل عليك بها».

أقول إني لم أكن أعرف أن ذلك السبت هو السبت الأخير، وأن جلساتنا الأسبوعية كانت قد وصلت إلى نهايتها مساء يوم ١٥ يوليو ٢٠٠٦، وأن الأستاذ لن يكون في انتظاري يوم السبت التالي، ولا أي سبت آخر في غرفة الاستقبال بمنزله مرتديا «الروب دي شامبر» الحريري في الصيف، والصوفي في الشتاء، والشبشب الجلدي، وواضعا النظارة الطبية على عينيه والسماعة في أذنه اليسرى، وهو يقول لي فاتحا ذراعيه: «أهلا وسهلا»، ثم يقبّلني على كتفيَّ الاثنتيْن، إذ لم يكن يقبّل أحدا على وجهه أبدا!..

ففي الصباح الباكر ليوم الأحد، تعثر الأستاذ في غرفة نومه ووقع على الأرض، فأصيب بجرح غائر في مؤخرة رأسه، ودخلت عليه ابنته الصغرى «فاطمة» فوجدته فاقدا للوعي وينزف بشدة. ساعدها الحرس الخاص به، وتم نقله على الفور إلى مستشفى الشرطة الملاصق لمنزله، حيث تم عمل بعض «الغُرَز» الجراحية لخياطة الجرح، وكان مقررا له أن يغادر المستشفى خلال أيام قليلة.

وما إن أفاق الأستاذ «نجيب» من العملية حتى وجدني أمامه، فسألني: «هو إيه اللي حصل؟»، فشرحت له أنه تعثر مثلما نتعثر جميعا، وأنه جاء إلى المستشفى لعمل «غرزتين» وسيخرج خلال أيام.

كانت تجلس معه فى الغرفة زوجته السيدة «عطية الله»، وكانت تقف إلى جوار سريره الممرضة «هالة» التى تعرَّف عليها الأستاذ على الفور، فقد كانت تتولى رعايته عندما دخل نفس المستشفى فى شتاء عام ١٩٩٤ على أثر محاولة الاغتيال، فحياها وقال: «هوَّ إحنا فى مستشفى الشرطة؟»، قلت: «نعم». قال: «وبتقول غرزتين؟»، قلت: «نعم»، فضحك وقال: «لم أكن أعرف أن الشرطة أصبحت تسمح الآن بالغُرَز!»، فضحكنا معه، لكن ضحكته المجلجلة كانت هى الأعلى.

أمضيت مع الأطباء بعض الوقت حتى اطمأننت على حالته، حيث كان قد تم عمل أشعة مقطعية على رأسه لتبين إن كانت هناك أية آثار للوقعة. وجدوا أن كل شىء طبيعى، وقالوا لى إنهم سيُجرون أشعة ثانية بعد ٢٤ ساعة، فبعض الآثار التى يُخشى منها على المخ قد تظهر بعد فترة.

كانت الحالة المعنوية للأستاذ مرتفعة، حتى إننى وجدته فى حالة أفضل مما وجدته عليها مساء اليوم السابق حين كان مهموما بالحرب اللبنانية، لذلك فحين سألنى فى تلك الزيارة بالمستشفى عن الوضع فى لبنان لم أشأ أن أكدره، فقلت: «إننى لم أطلع على الأخبار بعد، لقد جئتك بمجرد أن صحوت».

مكثت مع الأستاذ حوالى نصف ساعة، سألنى خلالها إن كنت قد قرأت «الأحلام» الجديدة التى نُشرت فى العدد الصادر صباح ذلك اليوم من مجلة «نصف الدنيا»، فقلت له: «إننى قرأتها»، فقال لى: «أى حلم أعجبك أكثر؟»، قلت: «الأخير». قال لى: «أيُّهم هذا؟». كانت معى المجلة فقرأته عليه:

«رأيتنى أعد المائدة والمدعوون فى الحجرة المجاورة تأتينى أصواتهم، أصوات أمى وإخوتى وأخواتى، وفى الانتظار سرقنى النوم، ثم صحوت فاقدا الصبر، فهرعت إلى الحجرة المجاورة لأدعوهم، فوجدتها خالية تماما وغارقة فى الصمت، وأصابنى الفزع دقيقة، ثم استيقظت ذاكرتى فتذكرت أنهم جميعا رحلوا إلى جوار ربهم، وأننى شيعت جنازاتهم، واحدا بعد الآخر».

وسَرَتْ فى نفسى رجفة لا إرادية، ووددت لو أن عينى لم تقع على هذا الحلم!

٢

مضى اليوم الأول بالمستشفى هادئا، فقد عدت مرة أخرى لزيارة الأستاذ بعد الظهر، ووجدته مستيقظا ومعه السيدة زوجته التى لم تكن تغادر مقعدها بغرفته من الصباح وحتى المساء. كانت هناك أيضا ابنتاه «أم كلثوم» و«فاطمة»، (أو «هدى» و«فاتن» كما تسميان فى البيت)، بالإضافة لعدد من الممرضات اللاتى أحَطْنَ بسريره، وكان الجو العام فى غرفته مرحا بسبب الروح المعنوية العالية لمريضنا المثالى الذى كان ينفّذ جميع تعليمات الأطباء بروح طيبة ودون تذمر. كان وجوده يشيع البهجة فى الغرفة رقم ٦١٢. الشىء الوحيد الذى كان يدل على أنه مريض كان الضمادة التى أحاطت برأسه، وكيس الدم المعلق إلى جوار سريره، والذى كان يقطر نقطة نقطة ليعوضه عما فقده بسبب النزيف.

تهلل وجهه حين رآنى وقال: «أهلا حبيبى»، سألته: «هل تناولت طعام الغداء يا أستاذ نجيب؟»، فقال على الفور: «أمَّال كنت حاسْتَنَّى لدلوقتى؟»، قلت: «ماذا أكلت؟»، قال: «سمك». وقد كان السمك من أكلاته المفضلة.

كانت كل الدلائل تشير إلى أن الأستاذ سيخرج من المستشفى خلال أيام، فكل شىء كان على ما يرام. سألت عن الأشعة المقطعية الجديدة، فقالوا لى إن موعدها صباح الغد حتى يكون قد مر على الأشعة الأولى ٢٤ ساعة، وكنت قد مررت على مدير المستشفى - العميد «عماد» - قبل صعودى إلى الغرفة، فأكد لى أن جميع التقارير الطبية مُطَمْئِنَة، وأن كل ما فى الأمر أن الأستاذ موجود بالمستشفى فقط للراحة، وأنه سيعود بَعد ذلك لحياته الطبيعية.

قررت ألا أخبر الصحافة بمرض الأستاذ حتى لا يتحول المستشفى إلى سيرك لا يمكن السيطرة عليه من كثرة الزيارات، فراحة الأستاذ أهم من كل شىء، وليأخذ يوما إضافيا دون إزعاج ممن سيتوافدون عليه للاطمئنان على صحته. ومن يدرى، فقد يعود الأستاذ إلى منزله قبل أن يعرف أحد أنه دخل المستشفى، ففى الأحوال

العادية يخرج من أجريت له تلك الخياطة البسيطة فى نفس اليوم، ثم يمر على المستشفى فى الأسبوع التالى لفك الغُرَز، وقد أكد لى الأطباء أنه حين يخرج الأستاذ من المستشفى فهم الذين سيذهبون إليه فى المنزل لفك الغرز دون أن يضطر للحضور بنفسه إلى المستشفى.

لكن فى اليوم التالى - وهو الاثنين الموافق ١٧ يوليو ٢٠٠٦ - كان الخبر قد بدأ ينتشر بين أصدقاء الأستاذ الذين تَغَيَّب عن جلستهم مساء الأحد بفندق« شبرد»، وهؤلاء الذين لم يكن سيلقاهم مساء الاثنين فى فندق «موفنبيك» المطار، وبدأ البعض منهم يتساءل عما حدث، ولماذا تغيَّب الأستاذ. أدركت عندئذ أن الوقت قد جاء لنشر الخبر، فكتبت الخبر بنفسى بصيغة لا تدعو للانزعاج ليظهر فى اليوم التالى بجريدة «الأهرام».

كان أول المتصلين للاطمئنان بعد نشر الخبر هو الرئيس «حسنى مبارك»، حيث اتصلت رئاسة الجمهورية بالسيدة حرمه. قال لها المتحدث إن الرئيس يود التحدث إلى الأستاذ، فشكرت السيدة «عطية الله» المتحدث وأخبرته بأن الأستاذ لا يتحدث فى التليفون بسبب ضعف سمعه، فاستأذن المتحدث منها للحظات، ثم عاد يقول لها إن الرئيس يود إبلاغ تحياته للأديب الكبير ويسألها إن كانت فى حاجة إلى شىء، فطلبت منه إبلاغ شكرها هى والأسرة للرئيس.

وفى نفس اليوم اطمأن على الأستاذ «محفوظ» رئيس الوزراء الدكتور «أحمد نظيف» ووزيرا الداخلية والإعلام، وحضر وزير الثقافة «فاروق حسنى» لزيارته بالمستشفى، ثم توالى حضور المسئولين والأصدقاء والمعارف، وكان فى مقدمتهم «جمال الغيطانى» و«يوسف القعيد» و«عبد الرحمن الأبنودى» و«توفيق صالح» و«نعيم صبرى» و«ممدوح الليثى» والدكتور «فتحى هاشم» وكثيرون غيرهم.

وحين وصل المهندس «إبراهيم المعلم» - ناشره الرسمى - لزيارته قال له الأستاذ: «أهلا بالحبيب ابن الحبيب!». وضع «المعلم» كرسيا إلى جوار السرير وأمضى حوالى نصف ساعة يحكى للأستاذ تفاصيل مشروع كنت قد عرضته عليه قبل أن

يدخل المستشفى، وهو الاحتفال الذى سيقيمه اتحاد الكتاب مع «دار الشروق» فى نهاية العام حين يُتِمُّ الأستاذ عامه الـ ٩٥، حيث يُدْعَى لمؤتمر كبير يشارك فيه الباحثون والمترجمون العرب والأجانب للحديث عن أدب «نجيب محفوظ» والقضايا المتصلة بترجمته فى الخارج. ومن المعروف أنه قد صدرت حتى الآن ٤٦٠ طبعة من أعمال «محفوظ» فى الخارج بأكثر من ثلاثين لغة، أما أعماله بالعربية فستصدرها «دار الشروق» فى شكل مجلدات تحوى أعماله الكاملة.

وقد جلس الأستاذ يستمع فى اهتمام إلى تلك التفاصيل. كنت أعرف أنه يفضل مثل هذا الاحتفال على الاحتفالات التى كان يجد نفسه مرغما عليها كل سنة، حيث كان يأتى له الناس بكعكة عيد ميلاد ليقوم بإطفاء شموعها أمامهم، هو الذى لم يتعود على الاحتفال بعيد ميلاده حتى وهو طفل! وكثيرا ما قال لى: «إننى لم أتعود إطفاء هذه الشموع وأنا طفل، فهل أطفئها الآن وقد صرت شيخًا؟!». وكانت أول مرة فى حياة «نجيب محفوظ» يقام له احتفال بعيد ميلاده، هى تلك التى أقامها له الأستاذ «محمد حسنين هيكل» عام ١٩٦١ بمناسبة بلوغه سن الخمسين، والتى دعا إليها «أم كلثوم» بعد أن عرف أن «محفوظًا» يعشقها وأنه لم يقابلها قط، وحضر الاحتفال عدد كبير من الأدباء على رأسهم «توفيق الحكيم» و«صلاح جاهين» وغيرهما.

وأذكر قبل عيد ميلاد الأستاذ الـ ٩٠ أننى كتبت مطالبا بضرورة أن يكون الاحتفال بعيد ميلاده هذه المرة على المستوى الذى يليق بأحد أكبر أعلام هذا الوطن. قلت: «لماذا لا يقام له تمثال فى ميدان عام أو يطلق اسمه على شارع كبير، فتكون تلك هديتنا لرجل أثرى حياتنا ورفع قامتنا بين سائر الأمم وهو يتم عامه الـ ٩٠؟».

والحقيقة أننى تلقيت من محافظ الجيزة فى ذلك الوقت ـ المستشار «محمود أبو الليل» (وهو وزير العدل فيما بعد) اتصالا تليفونيا أبدى فيه اهتماما كبيرا بهذا الموضوع، وقال لى إن هدية عيد ميلاد «نجيب محفوظ» موجودة عنده. وبالفعل

صدق الرجل وعده، فطلب بداية من أحد أساتذة الفنون الجميلة عمل لوحة جدارية بالفسيفساء تمثل «نجيب محفوظ» وسط أعماله، وقد نُفِّذَت اللوحة تحت كوبرى ٦ أكتوبر، وفى مكان مواجه لمنزل الأديب الكبير على نيل العجوزة. ثم قرر المحافظ إطلاق اسم «نجيب محفوظ» على أكبر ميادين الجيزة، وهو ميدان «سفنكس» فى بداية شارع جامعة الدول العربية، والذى صار اسمه منذ ذلك اليوم «ميدان نجيب محفوظ»، وعهدت المحافظة إلى النحات «سيد عبده» بعمل تمثال من البرونز بالحجم الكامل يمثل الأديب الكبير بعصاه الشهيرة، ووُضع التمثال فى منتصف الميدان. خلاف ذلك كانت كل هدايا «محفوظ» فى أعياد ميلاده المتعاقبة هى كعكات عيد الميلاد بشموعها المضيئة كى يلتقط أصحابها صورهم إلى جانبه وهو يطفئها.

وما إن أنهى «إبراهيم المعلم» زيارته حتى بدأ المستشفى يعج بالزوار من المواطنين العاديين الذين جاءوا بغرض الاطمئنان على أديب مصر الكبير الذى قرءوا صباح ذلك اليوم أنه دخل مستشفى الشرطة.

واستمرت وفود الزائرين فى اليوم التالى أيضا وبدأت تشكل عبئا على الأستاذ، فتَشَدَّد المستشفى فى السماح للزوار بالدخول، ولم يسمح إلا للأصدقاء المقربين فقط بالزيارة.

على أن منع الزيارة عن الأستاذ أثقل كاهل السيدة زوجته التى وجدت نفسها مضطرة لأن تستقبل فى الصالون المجاور للغرفة كل من لم يتمكن من الدخول إلى الكاتب الكبير، وقد كنت أدخل ذلك الصالون لتحية السيدة «عطية الله» أو بنات الأستاذ «نجيب» عند وصولى أو قبل انصرافى فلا أجد مكانا شاغرا!

وإزاء ذلك فقد رأت السيدة «عطية الله» ألا نتعجل فى خروجه من المستشفى، فقد يكون من الأفضل أن يستمر فيه إلى أن يتم فك «الغرز»، فهو فى المستشفى يَلْقَى عناية متخصصة لن تتوافر له فى البيت، كما أن السياج المنيع الذى وُضع حول زيارته لن يتوافر له فى البيت إذا ما جاءه زائر يطلب مقابلته.

وفى يوم الخميس ذهبت لزيارة الأستاذ فى الصباح، فلاحظت أن حالته تتحسن

من يوم إلى آخر، وجلسنا نتحدث عن «أحوال البلد» كما كان يحب أن يسميها. قال لى إنه سمع بأنه كانت هناك مظاهرات. قلت: «نعم، كان ذلك فى الجامعة بسبب موضوع لبنان». فسألنى: «ألم يصلوا إلى وقف إطلاق نار بعد؟»، قلت: «ليس بعد، لكن هناك محاولات حثيثة للوصول إليه»، ومرة أخرى حولت الحديث إلى موضوعات أخرى حتى لا يعود إليه الحزن الذى كنت أراه على وجهه كلما تحدثنا عن لبنان.

قلت له: «إن جابرييل جارسيا ماركيز اتصل بى فى وسط الليل معتذرا لفرق التوقيت ليطمئن على صحتك»، فقال: «من أين اتصل؟»، قلت: «من منزله فى لوس أنجليس، فهو يتنقل طوال السنة ما بين منزله فى كولومبيا، ومنزل ثان له بالولايات المتحدة، وثالث بالمكسيك».

أخذنا الحديث بعض الوقت عن «ماركيز» الذى لم يكن «محفوظ» قد قابله قطّ، لكن جمعتهما بعض المواقف المشتركة كالبيانات التى وقّعاها سويا فى بعض قضايا الحرية ضمن عدد من كبار الأدباء فى العالم، وكان كل منهما يتابع أخبار الآخر عن كثب ويكن له احتراما كبيرا، فقال «محفوظ»: «يقولون إنه لم يعد يكتب الآن»، قلت: «إنه يمر بفترة توقف، ربما كتلك التى مررت بها أنت فى بداية الخمسينات». قال: «كان ذلك فى بداية حياتى، لكن فى حالة ماركيز يبدو أنها لعنة نوبل!».

كنت على وشك أن أسأله ماذا يقصد، حين دخلت فجأة «هالة» الممرضة التى أخذت تحييه وتثنى على تقدم حالته الصحية عن الأمس، وأمسكَتْ بيده بين يديها، فأخذتُ أداعبه على تلك العلاقة الخاصة التى كانت بينه وبين «هالة» التى كان يتعرف عليها بمجرد أن تدخل الغرفة، على حين كنا نضطر دائما كلما دخل عليه أحد أن نقول له إن فلانا قد جاء.

ضحك الأستاذ وقال: «أمَّال إيه! دى عِشْرة عمر، كل حادثة هى اللى بتلحقنى».

وقدمت لى السيدة «عطية الله» مشروبا مثلجا من ثلاجة «مينى بار» داخل

الغرفة، فشكرتها معتذرا، لكن الأستاذ أصر على أن أشربها قائلا إن أحدا لن يطالبنى بثمنها، فضحكت وضحك معى، ثم قال: «عارف فى أول مرة ذهبت لمقابلة توفيق بك (يقصد توفيق الحكيم) لم أكن أعرفه شخصيا، لكنه كان قد سمع بى وطلب من صديقنا المشترك، المرحوم «محمد متولى» - مدير دار الأوبرا - أن يعرفه بى، فحدد لنا «متولى» موعدا وذهبت لمقابلته فى أحد المقاهى بوسط البلد، وما إن جلست إلى مائدته حتى جاء «الجارسون» يسألنا عما نريد، فطلبت فنجان قهوة، وطلب هو مثله، ثم إذا به يقول لى على الفور: شوف بقى، حاتقوللى أنا اللى حادفع الحساب، وهاقولك لأ أنا اللى حادفعه، خلى كل واحد فينا يدفع حسابه أحسن علشان ما نتخانقش!».

وكان قد مضى حوالى الساعة وجاء موعد غدائه، فاستأذنته فى الانصراف، وسألته إن كان يريد أى شىء، قائلا إننى سأمر عليه فى اليوم التالى، فسألنى: «ألن تسافر للساحل الشمالى؟»، قلت: «ليس هذا الأسبوع». كنت خلال فترة الصيف أسافر كل يوم خميس إلى الساحل الشمالى لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، لكنى رأيت أن أؤجل السفر هذا الأسبوع، وقلت له: «سأسافر الأسبوع المقبل حين تكون قد خرجت من المستشفى بإذن الله».

٣

دخلت عليه الغرفة فوجدته وسط الأطباء. قال: «أهلا رئيسنا!». نظر إلىّ أحد الأطباء متعجبا، فقلت إن الأستاذ منذ انتُخبت رئيسا لاتحاد الكُتّاب وهو يحلو له أن يداعبنى هكذا، لكنى فى أول فرصة طرحت على مجلس إدارة الاتحاد اختيار «نجيب محفوظ» رئيسا فخريا له، ومع ذلك ظل يداعبنى بين الحين والحين، فأرد عليه قائلا: «إنت رئيس الكل!».

بعد أن خرج الطبيب قربت الكرسى من سريره وجلست إلى جانبه أحكى له بعض أخبار الصحف فى ذلك الصباح، حيث إن «الحاج صبرى» لم يعد يأتيه كما

كان يفعل فى المنزل. كان خلال حديثى يعلق على بعض الأخبار ويترك البعض الآخر بدون تعليق.

بعد قليل قلت له: «أخبار الأحلام إيه يا أستاذ نجيب؟»، فقد كنت أعرف أن كتابة «أحلام فترة النقاهة» التى كانت تشغله فى سنواته الأخيرة كانت هى موضوعه المفضل، وكان لذكرها تبرق عيناه ويتحمس للحديث، لذلك فقد كنت كثيرا ما أسأله عنها. وحين يتم نشر دفعة جديدة منها فى أول كل شهر كنا نتناقش فيما ورد بها، فرغم ما كان يمثله أديبنا الأكبر من مهارة أدبية واقتدار، ورغم ما كنا ننبهر وينبهر العالم معنا بكل ما تخطه يده من أعمال، إلا أنه ظل حتى النهاية حريصا على سماع رأى الناس فيما يكتب وكأنه كاتب مبتدئ يقوم بمحاولاته الأولى ويريد أن يطمئن إلى رأى الآخرين فيما يقوم به!

سألته أمامى ناقدة إسبانية زائرة ذات مرة إن كان قد استوحى هذا الشكل المبتكر من التراث العربى القديم حيث إنه لا مثيل له فى الآداب الغربية، فاكتفى بأن قال لها «لا»، فقلت لها أنا ما لم يَقُلْهُ فى رده المتواضع والمقتضب، وهو أن هذا القالب من ابتداعه هو، وأنه جديد علينا أيضا كما هو جديد على الآداب الغربية.

والحقيقة أننا إذا بحثنا فى هذا القالب المتناهى القصر الذى اختاره «نجيب محفوظ» ليصوغ فيه «أحلام فترة النقاهة»، ربما وجدنا أن أكثر ما يقترب منه فى الآداب العالمية هو شعر الـ «هايكو» اليابانى الذى لا تزيد فيه القصيدة على بيتين أو ثلاثة، لكنها تشع بالمعانى التى تعجز عن التعبير عنها صفحات طويلة. . ومع ذلك فإن أديبنا العربى لم يتأثر بشعر الـ «هايكو»، وقد سألته ذات مرة إن كان قد قرأ هذا النوع من الشعر، فقال إنه سمع به لكنه لم يقرأه.

لكن «الأحلام» ليست منفصلة عن الإنتاج الأدبى لمحفوظ، فهى فى جانب منها امتداد طبيعى للقالب الفنى الذى استخدمه «نجيب محفوظ» فى «أصداء السيرة الذاتية»، لكن بينما كان هناك خيط رفيع يلضم كل تلك اللآلئ الصغيرة فى «السيرة»، فقد اتخذ «محفوظ» من كل منها وحدة قائمة بذاتها فى «الأحلام»،

فأصبح علينا أن نبحث عن المعنى الفنى لكل حلم داخل نفسه وليس بالتكامل مع ما جاء قبله أو بعده. أما من ناحية المضمون، فإن «الأحلام» تنطوى على رؤية سامية ونبيلة للحياة لا تأتى للفنان إلا فى نهاية العمر حين يكون قد خَبَرَ الحياة طولا وعرضا ووصل إلى الحكمة الكاملة التى تؤدى إلى سلام نفسى لا يجده فى المراحل الأولى من حياته. إن ذلك هو الشعور الذى تبعثه فى نفسك على سبيل المثال رباعيات «بتهوفن»، التى كتبها فى المرحلة الأخيرة من حياته حين ترك صخب الأوركسترا الفيلهارمونى المكون من ١٢٠ عازفا، بالإضافة للكورال الآدمى كما فى سيمفونيته التاسعة، واختار أربع آلات وترية فقط لتقدم معزوفته، لكنها جاءت معبرة عن بُعد روحانى نادر قد تعجز عنه آلات الأوركسترا المكتملة.

وقد بلغ من شدة تواضع «نجيب محفوظ» أنه حين بدأ يكتب هذه «الأحلام» وكان أحد زائريه يسأله عما يكتب الآن، كان يقول وهو يشير بيده: «أكتب أشياء صغيرة هكذا فى حجم الكف!»، وكنت أقول له: «إن بعض ما هو فى حجم الكف قد يقتل مائة وألف!»، فكان يضحك دون أن يعلق.

كنت كثيرا ما أتذكر ذلك التواضع الصادق للأستاذ كلما جاءه زائر كبير ليقدم له أسمى آيات الاحترام، وكنت كلما صدرت له «أحلام» جديدة وسألنى عن رأيى فيها، أتذكر بعض هؤلاء الكتاب ممن يعتبرون أكبر الكتاب فى العالم وهم يسعون لزيارته.. كنت أتذكر كاتبة جنوب إفريقيا الفائزة بجائزة نوبل «نادين جورديمر» حين نقلتُ إليها دعوة من وزير الثقافة «فاروق حسنى» لزيارة مصر، فقالت لى إنها حضرت إلى مصر عدة مرات من قبل لكنها لم تنجح فى مقابلة «نجيب محفوظ»، لذلك فهى تشترط لقبول الدعوة أن يُحدد لها موعد مع أديب مصر الكبير.

كنت أتذكر الكاتب الفرنسى الكبير «روبير سوليه» وهو يقول له: «أنت الحكَّاء الأكبر الآن فى العالم، ولقد أثرت ليس فقط على القراء، وإنما أيضا على الكُتّاب».

كنت أتذكر الشاعر الأمريكى «لابان كاريك هيل» وهو يروى له كيف أن رواية

«الطريق» التى كتبها «محفوظ» عام ١٩٦٤ وترجمت إلى الإنجليزية عام ١٩٨٧ - أى قبل فوزه بجائزة نوبل - غيرت مجرى حياته .

كنت أتذكر أيضا كيف جاءه مدير النشر فى دار «لو روشيه» الفرنسية يقول إنه قرأ فى «الأهرام إبدو» الترجمة الفرنسية التى كنا ننشرها تباعا لـ «أحلام فترة النقاهة»، وإنه لم يقرأ لها مثيلا من قبل، ويطلب منه حق إصدارها فى كتاب فى فرنسا . . وفى ذلك الوقت لم تكن «الأحلام» قد صدرت فى كتاب فى مصر بعد، وقد صدر الكتاب فى مصر فى العام التالى لصدور الطبعة الفرنسية . ومثل هذا التسارع لنشر إنتاج أديب عربى فى الخارج، وحتى قبل أن يصدر ذلك الإنتاج فى بلده، لم نعهده من قبل فى الوطن العربى .

كان كل ذلك فى ذهنى وأنا أسأل الأستاذ فى المستشفى : «إيه أخبار الأحلام؟» .

ابتسم الأستاذ وهو يقول : «الأحلام متْعَوَّرَة!» . قلت له إن الطبيب أخبرنى أنهم سيفكون «الغُرَز» اليوم، فقال لى : «يمكنَ ساعتها بقى ترجع الأحلام تانى!» .

قلت للأستاذ إن السيد «عمرو موسى» اتصل بى من لبنان للاطمئنان عليه، وإنه سيأتى لزيارته بمجرد عودته، وأننى كنت بالأمس مع زوجة السفير البريطانى سير «ديريك بلاملى» - وهى ابنة الروائى الراحل «يوسف جوهر» - وكانت ترغب فى زيارته مع زوجها منذ فترة، لكننى قلت لها إن الزيارة ممنوعة فى الوقت الحالى، فقال لى الأستاذ : «قل لها إننى سأكون سعيدا بأن ألقاها هى والسفير فى المنزل بعد خروجى إن شاء الله» .

كان معى خطاب أطلعته عليه قائلا : «هذه دعوة لك من إسبانيا لحضور اجتماع للأدباء الفائزين بجائزة نوبل سيعقد فى مدريد . وقد اعتذرت عنه بالفعل» . ثم قلت : «هل تعلم يا أستاذ نجيب أن أكثر لغة تُرجمت لها أعمالك هى الإسبانية؟» . قال : «أكثر من الإنجليزية والفرنسية؟» . قلت : «نعم، فهناك حتى الآن ٣٩ إصدارا بالإسبانية يحمل اسمك، ويلى الإسبانية الإنجليزية بـ ٣١ إصدارا، ثم الفرنسية بـ ٣٠ إصدارا» . قال : «على أى حال كتر خير الكل» ، قلت : «إنك من أكثر أدباء

نوبل الذين يتزايد الإقبال على كتبهم من عام إلى عام». ثم قلت: «لقد بحثت فى الصيف الماضى أثناء زيارة لى إلى باريس عن إحدى روايات الكاتب الفرنسى «كلود سيمون»، فلم أجد كتابا واحدا فى المكتبات التى زرتها، رغم أنه فاز بجائزة نوبل قبلك». قال: «نعم، لقد فاز بها عام ١٩٨٥، وقد سعدت بمقابلته حين جاء إلى القاهرة». قلت: «أذكر ذلك جيدا، وهو كاتب كبير، لكننى لا أكاد أجد كتبه فى المكتبات الآن، على حين أنه فى كل مرة أسافر فيها إلى الخارج أجد كتبا جديدة قد صدرت لك».

وحان موعد انصرافى، فطلبت منى السيدة حرمه أن أبقى قليلاً؛ فقد أخبروها بأن وزير الصحة ـ الدكتور «حاتم الجبلى» ـ سيأتى لزيارته بعد قليل ليوقع عليه الكشف بنفسه ويطمئن على صحته، لكننى كنت مرتبطا بموعد، فقلت لها إننى سأتصل بها فيما بعد لأعرف نتيجة هذا الكشف. وقبّلتُ رأس الأستاذ وانصرفت.

حين اتصلتُ بها بعد ذلك، قالت إن وزير الصحة كشف عليه طويلا، ثم بعد أن انتهى أعرب عن رأيه بأن الأستاذ ليس فى حاجة لأن يسافر إلى الخارج. ولما كانت أسرته لم تطلب أن يسافر إلى الخارج، فقد فهمنا أن الدولة أرادت أن تتبين من نفسها إن كانت حالته تستدعى السفر!

فى طريق خروجى من المستشفى اتصلت بى سكرتيرتى تقول إنها لا تستطيع ملاحقة المكالمات التى تأتى من جميع أنحاء العالم تسأل عن صحة الأستاذ «نجيب محفوظ»، وقالت إنها وصلتها اتصالات من باريس ونيويورك والمغرب وتونس وليبيا وإسبانيا وإيطاليا وروسيا والهند وكوريا. قلت: «كفى كفى. أنا قادم فى الطريق».

قبل أن أترك المستشفى، توقفتُ فى مكتب مدير المستشفى الذى طمأننى إلى أن كل شىء يسير على ما يرام، وأن الأديب الكبير بإمكانه أن يخرج فى أى وقت يشاء. قلت: «ما دام سيتم فك «الغُرَز» اليوم فلن يكون هنا داعٍ لبقائه فى المستشفى»، فوافقنى المدير قائلاً: «إننا نريد أن يكون قرار مغادرة المستشفى قراره

هو وليس قرارالمستشفى ، فنحن سعداء بوجوده طالما وجد هو أو أسرته أنه من الأفضل أن يبقى هنا».

قلت : «إن شاء الله يكون هذا قراره ، فهو لا يحب أن يبعد كثيرا عن أصدقائه ، ويميل إلى الإبقاء على عاداته اليومية كما هى ، وذلك مهم بالنسبة لحالته النفسية فى سنه هذه».

٤

وصلتُ إلى المستشفى فى ساعة مبكرة من الصباح ، ولولا معرفتى بأن الأستاذ من عادته الاستيقاظ مبكرا لذهبت أولا إلى مكتبى ثم عدت له فيما بعد . كان «نجيب محفوظ» يصحو دائما ما بين الخامسة والخامسة والنصف صباحا ؛ لأنه فى السادسة كان يترك منزله بالعجوزة ليسير على قدميه جنوبا بمحازاة النيل حتى يصل إلى كوبرى الجلاء ، فيعبره شرقا ، ثم يعبر الجزيرة حيث مبنى الأوبرا الحالى إلى أن يصل إلى كوبرى قصر النيل ، فيعبره قاصدا ميدان التحرير حيث كافتيريا «على بابا» التى كان يصعد إلى دورها العلوى ، فيجلس إلى جوار الشباك مطلا على الميدان ، فيقرأ الصحف ويتناول قهوة الصباح . اختار «محفوظ» هذه الكافيتريا لأنها من المقاهى القليلة التى تكون مفتوحة فى ذلك الوقت المبكر من الصباح لأنها تعمل ٢٤ ساعة فى اليوم .

لم يكن الأستاذ مدمنا لأى شىء . حتى القهوة التى كان يحب أن يبدأ بها يومه لم يكن يتناول منها إلا رشفة أو اثنتين ، ثم يضع الطبق فوق الفنجان ولا يقربها ثانية . أو قل إنه كان مدمنا للنظام ، فإذا تعوَّد على شىء سار عليه دون تعديل أو تبديل .

كان الأستاذ يعرّج بعد ذلك على الجامعة الأمريكية حين تكون قد فتحت أبوابها فى نحو التاسعة ، حيث كان يذهب إلى دار النشر الخاصة بها ، والتى كانت تحتفظ

بكل ما يُنشر عن كتبه فى الصحف الأجنبية، فيطَّلع عليها ثم يمشى على قدميه مرة أخرى إلى مكتبه بجريدة «الأهرام».

والحقيقة أن «محفوظًا» لم يكن له مكتب مستقل فى «الأهرام»، بل كان يجلس فى مكتب مشترك فى الدور السادس مع الدكتور «حسين فوزى» والدكتورة «بنت الشاطئ»، وحين فاز بجائزة نوبل - وكان الأستاذ «توفيق الحكيم» قد توفى قبلها بنحو سنة - أعطى «الأهرام» مكتب «الحكيم» - الذى ظل مغلقا منذ وفاته - لـ «نجيب محفوظ»، لكن «محفوظًا» ظل يجلس فى هذا المكتب على الأريكة التى كان يجلس عليها حين كان يأتى لزيارة «الحكيم»، ولم يجلس على مكتب «توفيق الحكيم» ولا مرة واحدة طوال حياته!

ولقد روى لى المهندس «إبراهيم المعلم» أن أحد الصحفيين العرب طلب منه ذات مرة أن يصحبه لمقابلة «نجيب محفوظ»، فاتصل «المعلم» بـ «محفوظ» الذى حدد لهما موعدا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى فى كافيتريا «على بابا». كان هذا هو اليوم الذى سيقابل فيه «المعلم» العلاَّمة والوزير السابق الدكتور «أحمد كمال أبو المجد» ليطلب منه يد ابنته، فذهب المعلم إلى موعد «محفوظ» أولا وخرج منه منتشيا بما سمعه من أفكار، ثم ذهب إلى الدكتور «أبو المجد» واثقا من نفسه ومرددا بعض ما سمعه من أديبنا الأكبر، فترك أثرا جيدا فى نفس العلامة الكبير الذى وافق أن يزوجه ابنته!

وصلتُ إلى غرفة الأستاذ بالمستشفى قبل التاسعة صباحا، فوجدته متيقظا كما توقعت. لم يكن أحد من أسرته قد وصل بعد، لكننى لم أكن أول زائريه. وجدت عنده رجلا فى العقد الثامن من عمره، عرَّفنى به قائلا إنه معرفة قديمة، وإنه من عائلة «العقاد».

كان رجلا وقورا، حيانى وخرج. قال لى الأستاذ بعد خروجه من الغرفة إنه كان مستشارا فى القضاء. سألته إن كان قريبا للعقاد الكاتب. قال: «لا. إنه من عائلة العقاد الموسيقى»، فلم أفهم. قال: «أعظم عازف قانون فى تاريخ مصر. كان يعزف فى فرقة «أم كلثوم» فى الثلاثينيات من القرن الماضى».

كان الأستاذ يعرف جميع عازفى القانون القدامى . كان هو نفسه يعزف القانون فى شبابه . كان القانون آلته الشرقية المفضلة . وقد وصل من شدة حبه للموسيقى أن التحق بمعهد الموسيقى العربية أثناء دراسته بقسم الفلسفة بكلية الآداب . كان فى ذلك الوقت يفكر جديا فى احتراف الموسيقى . أما أستاذه فى آلة القانون بالمعهد فكان حفيد «العقاد» الذى كان يعزف لـ «أم كلثوم» . . وعميد المعهد كان كذلك من عائلة «العقاد» ، وهو «محمد العقاد بك» .

وقد روى لى الأستاذ أنه عند بداية التحاقه بالمعهد كان عليه أن يقابل العميد ليحصل أولا على موافقته . دخل الأستاذ إلى مكتب «محمد العقاد بك» وهو يهاب الموقف .

قال الأستاذ : «نظر إلىّ العقاد بك من فوق لتحت وقال لى : إنت كبير فى السن كده ليه؟ شرحت له أننى طالب فى السنة الثالثة بالجامعة وأننى أهوى الموسيقى . سألنى عن الآلة التى أهواها . قلت له : القانون . فما كان منه إلا أن أصدر بفمه شخيرا غير مهذب أشعرنى بالخجل ، فتألمت واحْمَرَّ وجهى ، وتصورت أن الرجل لا يحب تلك الآلة . ثم أعطانى استمارة التحاق لكى أملأها ، وأثناء ذلك ظل الرجل ينظر إلىّ ويصدر صوت الشخير هذا بين الحين والحين . أحرجت جدا ولم أعرف ماذا أفعل . بعد أن خرجت من مكتبه قلت لزميل لى كان طالبا بالمعهد وأتى معى لتقديم أوراقى : إننى عدلت عن الانضمام للمعهد . وحكيت له ما فعله معى العقاد بك . ضحك صديقى ، وقال لى : كان علىّ أن أنبهك إلى أن الرجل لديه عيب خِلقى فى حنجرته يجعله يصدر صوت الشخير هذا دون أن يقصد! » .

ولم أتمالك نفسى من الضحك ، لكن الأستاذ لم يكن قد انتهى بعد ، حيث قال : «لم أكن مقتنعا تماما بهذا التفسير ، فقد بدا لى مدير المعهد قاصدا السخرية منى ، إلى أن روى لى الموسيقار «عبد الحليم نويرة» ما أقنعنى برواية صديقى . قال لى إنه فى افتتاح معهد الموسيقى صمم العقاد بك على أن يشارك فى الأوركسترا الذى سيقوم بعزف السلام الملكى فى حضرة «الملك فؤاد» ، وحاول الجميع إقناعه بالعدول عن

ذلك خشية أن يصدر عنه ذلك الصوت أمام الملك فينالهم جميعا الأذى، لكن العقاد بك كان «رأسه وألف سيف» - على حد تعبير «عبد الحليم نويرة» - أن يعزف أمام الملك، ووعدهم بأنه لن يتنفس طوال وجود الملك فى الصالة. ومر حفل الافتتاح على خير، لكن ما إن غادر الملك المكان حتى جرى العقاد إلى الكواليس وفعلها بأعلى صوت، وكأن أحدا كان يطبق على نفَسه طوال وجود الملك!».

ضحكنا أنا والأستاذ. ثم قال لى: «ومع ذلك فقد ظللتُ كلما قابلت العقاد بك فى المعهد أشعر بالخجل من هذا الموقف، ولم أرتح إلا حين تركت المعهد بعد سنة دراسية حصلت فيها على أعلى الدرجات، لكنى لم أتمكن من التوفيق بينها وبين دراستى فى الجامعة».

قلت: «كيف تمكن الرجل من الدخول إلى غرفتك؟».

قال: «إن له - على ما يبدو - قريبا جاء يزوره فى غرفة مجاورة، وطلب أن يرانى، فقلت لهم أن يسمحوا له بالدخول.

ثم وصل الأطباء لتوقيع كشف الصباح، فوجدونا نضحك، وإزاء استفسارهم قلت: «فاتكم نصف عمركم!».

٥

قلت: «كيف حدث هذا؟! ألم يكن أحد معه بالغرفة؟».

كنت قد دخلت على الأستاذ فى غرفته، فوجدته نائما وعلى وجهه بعض الكدمات الواضحة. حاولت التحدث إليه فلم يرد. خرجت مسرعا إلى الأطباء لأسأل عما حدث. قابلنى طبيب كان قادما إلى الغرفة ليطمئن على الحرارة والضغط وبقية الفحوصات الدورية التى تجرى لكل مريض.

قال: «لقد وقع ليلة أمس من السرير».

قلت: «وقع؟! كيف وقع؟».

قال: «لم أكن موجودا، لكنهم أخبرونا أنه وقع أثناء الليل من على السرير».

دخلت مع الطبيب إلى الغرفة. كان الأستاذ ما زال نائما وحوله الأجهزة الطبية التى تُظهر عدد دقات القلب، ونسبة الأكسجين فى الدم، وسرعة التنفس، على شاشة معلقة فوق السرير. قلت للطبيب: «لم تكن تلك الأجهزة موجودة بالأمس!». قال: «لقد حولنا غرفته إلى غرفة للعناية المركزة حتى يتمتع بأكبر قدر من العناية».

كان ذلك مطمئنا، لكن منظر تلك الأجهزة الموصلة بأسلاك وأنابيب إلى جسده لم يكن مريحا. كان بالأمس هو - نجيب محفوظ - كما عرفته قبل أن يدخل المستشفى. كنت أتحدث إليه وكأننا فى جلستنا الأسبوعية فى غرفة الاستقبال بمنزله، أما اليوم فهو مريض تحيط به الأجهزة الطبية، وعلى وجهه كدمات، كما أنه لا يسمعنى ولا يرد علىّ.

لم يكن نومه هذا طبيعيا. كان الأستاذ منظما فى كل شىء، فأثناء النهار لا ينام إلا بعد تناول الغداء فى حوالى الساعة الثانية. لماذا هو نائم الآن؟ وكان نومه دائما خفيفا، فإذا سمع صوتا صحا على الفور، لكنه الآن يبدو غائبا تماما عن الوعى. لم يتنبه حتى لحديثى مع الطبيب.

سألت: «هل هو مخدَّر؟».

قال الطبيب: «إنه مهدئ بسيط يسمح له بأخذ قسط من الراحة».

كان قد مضى نحو أسبوع على دخوله المستشفى، وكانت تلك هى المرة الأولى التى لا أحدثه فيها ولا يرد علىّ بقفشاته وقصصه المرحة. خرج الطبيب، وجلست إلى جوار السرير أستمع إلى أنفاسه وأنا واجم.

كان من المنتظر أن يخرج اليوم أو غدا. ترى متى سيتمكن من الخروج؟

مرت نحو عشر دقائق وأنا لا أتحرك ولا تحرك هو. بدت لى الدقائق العشرة كأنها ساعات!

بدأت حالتى النفسية تتأزم. خرجت من الغرفة بسرعة. كان طاقم الحرس الذى تعودت تحيته على باب منزله كلما زرته قد انتقل إلى خارج غرفته بالمستشفى.

كان بينهم الآن حارس جديد. ربما يكون حارسًا إضافيًا بسبب وجوده بالمستشفى.

قلت لهم: «ماذا حدث؟». قالوا: «لقد وقع». (يالهذه الجملة اللعينة التى تقابلنى كلما سألت عن حالته!).

قلت: «يعنى إيه وقع؟».

قالوا لى ما كنت أعرفه وما لم أكن أريد سماعه: «وقع من على السرير فى الليل».

يا إلهى! أليس هناك من يستطيع أن يقول لى شيئا آخر؟

تركت المستشفى فى حالة وجوم كامل. حين وصلت إلى مكتبى بـ«الأهرام» اتصلت بى الزميلة «منى رجب» منزعجة: «بيقولوا الأستاذ وقع تانى!». كررتُ عليها تلك الجملة اللعينة التى لم أكن أحب سماعها: «لقد وقع من على السرير فى الليل». لكنى تخيلت ما يمكن أن يكون من تأثير لهذا الخبر على القراء لو أنها نشرته فى الصباح، فأضفت بسرعة: «لكن حالته جيدة جدا وليس هناك ما يدعو للقلق، ويفضل ألا تنشرى الخبر لأنه قد يساء فهمه. إن وقوعه من على السرير حادثة عابرة لا تؤثر فى حالته الصحية من قريب أو بعيد». (تُرَى، أكنت أقصد عدم إزعاج القراء بهذا الكلام، أم أننى كنت أطمئن نفسى؟).

لم تمض أكثر من نصف ساعة واتصل بى أحد الصحفيين يسأل إن كان صحيحا أن الأستاذ قد وقع ثانية بالمستشفى؟ قلت: «وقع كما نقع جميعا، ألا يمكن لأى إنسان أن يقع؟ المهم ليس إن كان قد وقع أم لا. المهم هو حالته الصحية، وحالته

جيـدة فى رأى الأطباء». وتوالت التليفـونات. يا إلهى! كـيف انتشر الخبر بهذه السرعة؟ ومن الذى نشره؟ . . «أنا مندوب جريدة «الحياة». هل صحيح أن أديبنا الكبير وقع فى المستشفى؟» . . «أنا مراسل وكالة الأنباء الألمانية. هل وقع الأستاذ ثانية؟ » . .

- «لا، غير صحيح. لم يقع». وأغلقت تليفونى المحمول.

عـدت بعـد الظهـر إلى المستـشفى. قـال لى الطبيب المعـالج: «لا شىء يدعـو للانزعاج. لقد أجرينا له أشعة مقطعية. الوقعة لم تؤثر على أى شىء».

صعدت إلى غرفته. كان ما زال نائما. جلست مع السيدة «عطية الله». كانت واجمة هى أيضا، لكن دون انزعاج.

قالت: «كان مستيقظا منذ قليل».

قلت: «هل تحدَّث؟».

قالت: «لم يَقُل الكثير. رفض أن يأكل. إنه تأثير المخدر كما يقـول الأطباء. حين يزول ستعود إليه شهيته».

جلسنا صامتيْن ننظر إليه وهو نائم. كان يرفع يده بين الحين والحين ويفتح فمه، فأتصور أنه صحا ويريد أن يقول شيئا، لكن يده كانت تقع مرة أخرى ولا كلمات تخرج من فمه.

«كيف وقع؟» . . سألتُ ثانية. قالت: «لقد اعتاد سريره العريض فى المنزل، فهو كما تعلم سرير مزدوج وليس سريرا فرديا مثل أسرّة المستشفى».

لاحظت أنهم وضعوا له الآن حواجز حديدية على جانبى السرير حتى لا يقع ثانية. ذكَّرنى ذلك بأسرّة الأطفال ذات الأسوار. هل يعود الإنسان طفلاً حين يكبر فى السن؟

دخلت إحدى الممرضات. أخذت تتحدث إليه فى صوت عال. بدت وكأنها

تحدّث طفلا : «لازم نصحى بقى ، ياللا أمَّال ، الدكتور قال لازم نقوم النهارده شوية من السرير» .

لا استجابة . لم يكن هناك طفل بالغرفة يرد عليها . رفعت الممرضة الجانب العلوى من السرير فوضعت الأستاذ فى وضع الجلوس . لا استجابة . «شوية كده وحاجيلك تانى» ، قالتها وخرجت من الغرفة .

بعد قليل جاءت «فاتن» . سألتُها عن «هدى» . قالت إنها متوعكة قليلا . كانت هنا بالأمس . لقد أصبحتا الآن تتناوبان على الحضور . كلٌّ منهما تأتى لفترة ثم تعود إلى المنزل لتأتى الأخرى . أما زوجته فهى جالسة دائما على مقعدها بالغرفة لا تبرحه إلا لتعود إلى المنزل فى المساء .

دخل الغرفة فجأة مجموعة من الأطباء . ثلاثة أطباء وأتباعهم من الممرضين وإداريى المستشفى .

- «إزَّىّ حضرتك دلوقت يا نجيب بك؟» . . صرخ كبيرهم فى وجهه .

كانوا يعلمون أنه يعانى ضعف السمع ، لكن هذا الصراخ كان دائما يصل إليه صوتا مشوشا لا يسمع منه شيئا . يجب أن يكون الحديث فى أذنه اليسرى حيث توجد السماعة ، ويكون بصوت عال وواضح دون صراخ . فعلتُ هذا أمامهم دون أن أعلق على صراخ الطبيب لعلهم يتنبهون ، أو لعله هو يتنبه فيجيب علىّ ، لكن يبدو أنهم لم يتنبهوا ولا هو تنبه . فقط فتح عينيه ثم أغلقها ثانية وكأنه لم يجد أمامه شيئا يستحق النظر !

قلت : «قالت لى المدام إنه كان متنبها منذ قليل ، لكننى وجدته نائما فى الصباح والآن أيضا» .

قالوا : «لكننا نريد إفاقته» .

صرخ أحدهم من جديد دون أن يقترب من أذنه اليسرى : «الأستاذ سلماوى جالك آهُهْ !» .

فتح عينيه مرة أخرى وأغمضهما كما فعل فى المرة الأولى .

«ما دام يتجاوب فهذا جيد» . قالها كبيرهم ، ثم أخذ ينظر إلى الأرقام المتأرجحة على الشاشة التى تعلو السرير قائلاً : «كويس ، كويس» .

انتظرت حتى انتهى ثم سألته : «كيف حاله؟» .

قال : «ليس هناك ما يدعو للقلق . هو فقط فى حاجة إلى بعض الراحة ثم يعود كما كان . يجب أن نقلل من الزيارات قليلاً» .

قالت زوجته : «لا أحد يدخل عليه الغرفة إلا الأستاذ «سلماوى» والأستاذ «الغيطانى» والأستاذ «القعيد» ، فهؤلاء أولاده كما يسميهم» .

قال الطبيب : «من المهم أن يشعر بوجودهم حوله . هذا مفيد له نفسيا» ، ثم خرج وخرج خلفه بقية الذين كانوا يحيطون به .

لم يُرزق الأستاذ بأولاد . كانت «أم كلثوم» كبرى ابنتيه ، وبعدها جاءت «فاطمة» . على أن «أم كلثوم» لم تكن الجنين الأول ، فقد رُزق «نجيب محفوظ» جنينا آخر قبلها وكان ذكرا ، لكن زوجته اكتشفت بعد أشهر أنه توفى فى أشهره الأولى دون أن تعرف ، ودون أن يعرف الطبيب الذى كان يشرف على حالتها . كان كلما كشف عليها قال : «كويس ، كويس هو الآخر» . لكن الجنين كان قد مات حين صدمتها دراجة أثناء سيرها فى أحد شوارع الإسكندرية . أعطاها الطبيب حُقَنًا لتثبيت الجنين الذى كان فاقدا للحياة منذ فترة ، لكن بعد بضعة أسابيع ظهرت الحقيقة ، وتم إنزال الجنين ، وبدأت الأم علاجا طويل المدى للتغلب على مضاعفات ذلك الحمل . لم تُرزق بجنين آخر إلا بعد سنتين حين خرجت «أم كلثوم» إلى الوجود ، فسماها أديبنا الكبير باسم أجمل ما كان يعتز به فى عالم الفن ، وهى كوكب الشرق التى ملأت حياة الأمة العربية بهجة وجمالا على مدى عشرات السنين ، كما فعل هو فى مجال الأدب ، فصار كلٌّ منهما رمزا لأمته وعنوانا شامخا على رقيها الأدبى والفنى .

وبعد «أم كلثوم» جاءت «فاطمة» (وهو اسم والدة «نجيب محفوظ») ، كما أنه

اسم «أم كلثوم» فى أحد أفلامها) . . زهرتان طاهرتان أخذتا منه كل صفاته الجميلة ، من دماثة الخُلُق إلى التواضع وحلاوة المَعْشَر ، وقُدِّرَ لهما بعد ذلك ، وهما العَزُوفتان عن حب الظهور وبريق الأضواء ، أن تظهرا أمام العالم أجمع وتسلَّط عليهما أكثر الأضواء بريقا ، وهما تقفان أمام ملك السويد «كارل چوستاف الثانى» لتتسلما منه أرفع الجوائز الأدبية فى العالم نيابة عن والدهما .

ويبدو أن الأستاذ «نجيب محفوظ» ، الذى فقد ابنه الأول جنينا غير مكتمل النمو ، قرر أن يتبنى جميع أبناء وطنه عوضا عن الابن الذى راح ، فهكذا كان يعامل معارفه المقربين جميعا ، وكثيرا ما كان يستشيرنى فى كيفية مساعدة بعضهم حين يكون فى حاجة إلى مساعدة وكأنه يتحدث لصديق عن ابنه ، فيقول : «أريد أن أوظفه فى مكان محترم» ، أو «حاول أن تنشر له هذه القصة فى مكان ما» .

ورغم أن معرفتى بأديبنا الكبير بدأت فى السبعينيات ، إلا أن علاقتى بابنتيْه لم تتوطد إلا حين نجحتُ فى إقناعه بضرورة أن تصاحبانى إلى السويد فى احتفالات نوبل ، والتى اختارنى ممثلا شخصيا له فيها . وبينما ألقيت أنا خطاب أديبنا الأكبر فى الأكاديمية السويدية ، قامت «أم كلثوم» و«فاطمة» بتسلم الجائزة من يدى الملك .

رفع الأستاذ يده اليسرى الممددة إلى جواره على السرير ، فأخذتها «فاتن» بين يديها دون أن تتكلم .

أحسست أن يده تتشبث بيد ابنته . نظرت إلى الابتسامة الهادئة التى ارتسمت على وجه «فاتن» ، وتذكرت وجهها هى و«هدى» وهما تتسلمان جائزة نوبل من الملك . كان وجه «هدى» يشبه فى ملامحه وجه الأستاذ ، أما وجه فاتن فيحمل لك روحه . وحين تقدمتا إلى الملك وعلى وجه كلٍّ منهما ابتسامة جميلة ، كان ذلك هو «نجيب محفوظ» بملامحه وبروحه معا وقد تجسد فى فتاتين خَلَبَتَا ألباب الحضور فى هذا الحفل المهيب بمسرح البلدية بستكهولم يوم ١٠ ديسمبر عام ١٩٨٨ . كنت كلما نظرت بعد ذلك إلى هدى وفاتن وهما تبتسمان تذكرت هذه المناسبة ، حتى بعد أن ارتدتا الحجاب : «هدى» منذ خمس سنوات ، و«فاتن» منذ سنتين .

مـرت لحظات لم يقطعهـا إلا رنين التليـفـون الذى حـمل سـيـلا من المكالمات لمتحدثين يسألون عن صحة الأستاذ. ظلت تجيب عليهم السيدة «عطية الله» فى صبر وأدب. طلبتُ من إدارة المستشفى عند نزولى ألا يحوّلوا هذه المكالمات إلى الغرفة؛ فمعظمها لأناس لا نعرفهم.

ـ «يقولون إن تأثير المخدر سيزول غدا». قلت لفاتن.

قالت: «ربنا معاه».

٦

أخذت معى الصحف وذهبت إلى المستشفى. سأقرأ عليه بعض أخبارها. بحثت فيها عما لا يصيب بالاكتئاب فلم أجد. كانت إسرائيل قد ارتكبت مذبحة مروعة فى قانا تضارع مذبحتها الأولى عام ١٩٩٦، وكانت الولايات المتحدة ما زالت تعرقل التوصل إلى وقف لإطلاق النار. ماذا سأقول له؟ تركت الصحف فى السيارة.

كان الأستاذ قد عاد إلى وعيه، لكنه كان فى بعض الأحيان يتحدث إلينا، وفى أحيان أخرى يغيب عنا كما كان وهو تحت تأثير المهدئ.

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يعود فيها إلى مستشفى الشرطة بعد أن خرج منه إثر حادث الاعتداء عام ١٩٩٤. فى فبراير سنة ٢٠٠٣ أصيب بنزلة برد حادة والتهاب فى الشُّعَب الهوائية مصحوبا بآلام فى معدته وبضعف عام، ورأى الأطباء أن يدخل غرفة العناية المركزة، ووُضعت له المحاليل للتغلب على الجفاف الذى تسبب فيه ارتفاع الحرارة. لكن هذه المرة كانت مختلفة. فى المرتين السابقتين لم تكن ابتسامته تفارقه ولا روح الدعابة التى كان يستقبل بها ضيوفه، والتى بدأتُ أفتقدها الآن لأول مرة منذ قابلت الأديب الكبير فى بداية السبعينات الماضية.

كنت فى ذلك الوقت ما زلت شابًا فى مقتبل العمر، وكانت تربطنى علاقة قوية بـ «توفيق الحكيم» الذى كثيرًا ما كنت أفرغ بسرعة من عملى فى الدور الرابع

بـ «الأهرام» كمحرر للشئون الخارجية كى أصعد إلى مكتبه فى الدور السادس، وهناك كنت كثيراً ما ألتقى الأدباء والمفكرين، ففى مكتب «الحكيم» عرفت «ثروت أباظة» والدكتور «حسين فوزى» والدكتورة «بنت الشاطئ»، وكنت أقابل الدكتور «لويس عوض» والفنان «صلاح طاهر» اللذيْن كنت أعرفهما من قبل. وهناك كان لقائى الأول بـ «نجيب محفوظ». كان مجرد لقاء نادراً ما يزيد فيه الكلام عن التحية المصحوبة بابتسامته الشهيرة؛ فقد كنا نشارك آخرين فى هذا المجلس دون أن تكون هناك علاقة ثنائية بيننا.

وفى عام ١٩٨٣ وصلتنى من المطبعة «بروفات» مجموعة قصصية من إبداعى تم تجميع صفحاتها على هيئة كتاب أحاطته من الخارج «بروفة» الغلاف، فقررت أن أهدى هذه النسخة إلى «نجيب محفوظ» الذى كان قد أهدانى قبل بضعة أشهر نسخة من روايته الجديدة «الباقى من الزمن ساعة». كتبت له فى الإهداء ما معناه أننى أردت أن أهديه نسخة من الكتاب تختلف عن بقية النسخ التى سأهديها للناس. لكنى فوجئت بعد بضعة أيام بالنسخة التى أهديتها للأستاذ وقد عادت إلىَّ ثانية. ماذا فعلت؟ هل تخطيت حدودى بأن أهديته «بروفة» من الكتاب وليس الكتاب نفسه؟ قلبت الكتاب بسرعة، فإذا بى أجد بضعة أسطر فى الصفحة الأخيرة كُتب فيها التالى: «سمحت لنفسى أن أكتب لك بعض الاقتراحات على هذا النص، لكنى كتبتها بقلم الرصاص، فإذا لم تعجبك فبإمكانك أن تمحوها بـ «الأستيكة». . المخلص نجيب محفوظ»

كانت تلك الواقعة نقطة تحول فى علاقتى بـ «نجيب محفوظ» الذى لم أكن أتصور أن يمنحنى من وقته ما لم أطالبه به. حين أهديته الكتاب لم أكن أتصور أنه سيقرؤه، ففوجئت به يقرؤه ويبدى ملاحظاته أيضًا، ثم يعيده إلىَّ حتى أستطيع تداركها إذا شئت قبل الطبع، أو أن أمحوها بـ «الأستيكة»!

لكن من ذا الذى يجرؤ على محو شىء كتبته يد «نجيب محفوظ»؟ لقد نفَّذت كل ملاحظاته كما كتبها، وأنا فى عجب من أمر هذا الرجل العملاق الذى لم يكن ليتردد فى أن ينحنى ليمد يد العون إلى شاب صغير ما زال فى بداية حياته الأدبية!

منذ ذلك الوقت توطدت علاقتى بـ «نجيب محفوظ»، وأصبح يحتل فى نفسى مكانة خاصة بعد أن أعطانى من وقته واهتمامه ما لم يكن مطالبا به. ومع ذلك، فحين توفى «توفيق الحكيم» فى صيف عام ١٩٨٧ امتنعت عن الصعود إلى الدور السادس بمبنى «الأهرام»، وانقطعت صلتى المباشرة لفترة بـ «نجيب محفوظ»، إلى أن فوجئت به فى نهاية العام التالى يختارنى لأكون ممثله الشخصى فى احتفالات جائزة نوبل بالسويد.

أفاق الأستاذ فجأة وتكلم، لكننا لم نفهم كلماته. كان صوته واضحًا، لكن الكلمات هى التى لم تكن مفهومة. قالها ثانية. لم نفهم، فسكت ولم يكررها.

خرجت من الغرفة، فقد كان الهواء فيها شديد البرودة من قوة جهاز التكييف. كيف يتحمل الرجل تلك البرودة القطبية؟ بحثت عن أحد العاملين بالمستشفى..

قلت: «البرودة شديدة جدًا فى الغرفة».

أسرع الرجل إلى داخل الغرفة وهو يقول: «حسن، سنغلق جهاز التكييف».

قلت: «لماذا تغلقونه؟ كل المطلوب أن تنظم درجة حرارته لتصير طبيعية».

هل عدم القدرة على التعامل مع الأجهزة هو جزء من ثقافتنا؟ إن لدينا تصوراً بأن جهاز التكييف اختُرع بهدف أن ينقل إلينا جو القطب الشمالى. فإذا دخلتَ السينما أو أى مكان عام خرجتَ منه مصابًا بنوبة برد، مع أن كل جهاز تكييف به منظِّم حرارة لتحديد درجة الحرارة المطلوبة!.. ولذلك فحين تسافر إلى الخارج وتدخل أى مكان عام لا تكاد تشعر أن به جهاز تكييف؛ لأن الغرض من الجهاز ليس تصقيع الجو، وإنما الحفاظ على درجة الحرارة الطبيعية فى الصيف وفى الشتاء.

أغلق الرجل الجهاز وخرج من الغرفة. وما هى إلا دقائق حتى بدأت الحرارة ترتفع، ففتحوا الجهاز من جديد!

قالت السيدة «عطية الله»: «فلنفتح النافذة أحسن، إنها مطلة على النيل»، ففعلنا ذلك ليدخل الهواء عليلاً محملاً بنسمات النهر العظيم الذى كان الأستاذ يعشقه.

تكلم الأستاذ ثانية. كان كلامه هذه المرة مفهوما وإن كان بطيئا بعض الشيء.

قلت له: «إزيك يا أستاذ نجيب دلوقت؟».

صمت قليلا ثم قال: «ما اعرفش، إنت اللى تقوللى». قلت له: «الدكاترة بيقولوا إنك زى الفل». ابتسم لأول مرة دون أن يعلق. لابد أنه تذكر ما كنا نتندر به عن «توفيق الحكيم» حين كنا نزوره فى مستشفى المقاولين العرب بالجبل الأصفر؛ فقد كان يسمى الأطباء «الجماعة بتوع الفل»، لأنه كلما سألهم عن حالته الصحية قالوا له: «زى الفل».

قلت له: «ألا تريد أن تأكل شيئا». أشار بيده أنْ لا. قلت: «يقولون إنك لا تأكل على الإطلاق، والطعام هو الذى سيعيد الجسم إلى حالته الطبيعية». سكت قليلاً ثم قال: «ما فيش نفْس». حاولت أن أتحدث إليه فى بعض الموضوعات، لكنى كنت أشعر أننى أتحدَث إلى نفسى. لا أحد يرد علىّ، وربما لا أحد يسمعنى.

جاء «يوسف القعيد». قلت: «الأستاذ يوسف القعيد وصل»، فحياه وذهب مرة أخرى، إلى أين؟ لا ندرى. جلسنا فى نفس الغرفة مع السيدة «عطية الله». كان القعيد يحمل أخباراً كثيرة. وبعد بضع دقائق، نظر إلينا الأستاذ وقال: «موش عايز أتعبك أكتر من كده». قال لى «القعيد»: «يبدو أنه يريد أن يستريح»، قلت: «فلنتركه إذن»، ونزلنا سويًا.

حين عدت إليه فى اليوم التالى كانوا قد وضعوا له أنابيب المحاليل فى أوردة الرقبة لأنه كان ما زال ممتنعًا عن الأكل. كان أيضًا رافضًا مغادرة السرير منذ وقع من فوقه فى تلك الليلة المشئومة. قالت لى السيدة «عطية الله» إنها حين دخلت عليه فى الصباح متكأة على عصاها، كان أول ما قال لها: «حاسبى تقعى».

جاء الحلاق. الطبيب قال إن ذلك قد ينعشه ويحسن حالته النفسية، ولكن الأستاذ رفض مغادرة السرير، فحلق له الحلاق ذقنه فى السرير وقام بتصويره أيضًا، وبعد أيام نشرت بعض المجلات الصور التى التقطها الحلاق وقد ظهرت فيها الكدمات على وجهه من تأثير الوقعة. شاهدت الناس صور الأديب الكبير

بـ «البيچاما» ومكان الكدمات على جبهته وعلى خده الأيمن، لكن حالته النفسية ـ التى كانت السبب فى زيارة الحلاق ـ لم تتحسن.

قلت له: «هل تحب أن تشرب عصيراً؟». أشار بالرفض. قلت: «موش لازم تأكل، بس اشرب حاجة، لبن أو حتى مية. الدكتور قال لازم جسمك يشتغل». أشار مرة أخرى بالرفض.

كانت كل إشارة بالرفض تصيبنى وكأنها طعنة غائرة! «ماذا نفعل؟». . سألت الطبيب. قال: «سيظل على المحاليل هكذا إلى أن يعود للأكل».

فى المساء اتصل بى «جمال الغيطانى» يقترح علىَّ أن نوزع الزيارات فيما بيننا ـ أنا وهو و«يوسف القعيد» ـ بحيث يكون لكل منا يوم، فلا نتركه يومًا دون زيارة. كان «جمال» يعلم أن الأستاذ لا يستطيع أن يعيش بعيدًا عن الناس، والآن وقد مُنعت عنه زيارات الأصدقاء تمامًا فقد أصبح من الضرورى كلما فتح عينيه أن يجد أحدًا منا إلى جواره. قلت له إننى أذهب إليه كل يوم، قال: «لا يعجبنى صوتك»، قلت: «أنا قَلق»، قال: «وأنا أيضًا، لكنى متفائل».

فى اليوم التالى أبلغونى أن هناك خللاً فى وظائف الكليتيْن، لكنه كان متنبهًا حين دخلتُ عليه. كنت أحمل معى هذه المرة نسخة من مجلة «الفيجارو» الفرنسية. قلت: «هل تذكر الصحفى الفرنسى الذى جاءك الشهر الماضى وأمليناه مقالاً عن أحلام فترة النقاهة؟»، ودون أن أنتظر إجابته أضفت: «هذا هو المقال وقد نُشر فى العدد الجديد من المجلة. لقد أحضرت لك نسخة منه». قال: «مكتوب فيه إيه؟». قلت: «مكتوب على لسانك: كبَر السن يحدنى، لكن ما زال لدىَّ رحابة الأحلام!. . المقال على صفحة كاملة، وَتم تقديمه بشكل جميل جدًا». قال: «كتر خيرهم». قلت: «الحقيقة أنهم هم الذين يشكرونك على المقال فى خطاب رقيق بعثوا به مع خمس نسخ من المجلة».

لم يرد.

قلت: «غدا سيُنشر خبر فى الصفحة الأولى بـ «الأهرام» عن هذا المقال».

لم يرد.

دخل طبيب العيون حاملاً معه نظارة جديدة، ربما يساعد أى تجديد على تحسين حالته النفسية. قلت: «الدكتور جايب لك نظارة جديدة يا أستاذ نجيب». قال: «ونظارتى القديمة ما لها؟». قال الطبيب: «القديمة كويسة، لكن دى أجْدَد». وخلع الطبيب النظارة القديمة من على عينىْ الأستاذ ووضع بدلاً منها النظارة الجديدة، فقال الأستاذ فى أدب جم: «أنا متشكر جدًا»، وبعد أن خرج الطبيب قال لى الأستاذ إنه لا يرى جيدًا بالنظارة الجديدة، وطلب منى أن أخلعها وألبسه نظارته القديمة.

بعد قليل دخل طبيب آخر غير طبيب العيون: «أخبار الإسهال إيه؟». ردت الممرضة: «أحسن قليلاً». قلت: «كيف يحدث له إسهال وهو لا يأكل؟»، قال: «هناك خلل فى الجهاز الهضمى بشكل عام بسبب امتناعه عن الأكل». طبيب آخر قال لى: «ربما يكون بسبب الكميات الكبيرة من المضادات الحيوية التى نضعها له مع المحاليل».

جلستُ فى الاستراحة مع «هدى» التى تعجبت كيف يعامَل كبار السن وكأنهم أطفال!.. معظم الممرضات يتحدثن إليه وكأنه طفل صغير: «ياللا بقى لازم ناكل!». لكن أشد ما كان يقلقها هو تلك «الحفاضات» التى أصبحوا يُلبسونه إياها. قلت: «ربما بسبب الإسهال». قالت: «لكنها تحمل إليه رسالة بأنه لم يعد قادرًا على التحكم فى نفسه، وأنا أعلم أن هذا ليس مما يقبله بسهولة»!

٧

اتصل بى أحد الأصدقاء المقربين من الأستاذ وقال: «المسألة طالت أكثر مما ينبغى. إننا فى كل يوم اثنين نقول: الاثنين المقبل سنلتقى به كعادتنا. لكن الاثنين يأتى ولا يأتى الأستاذ. ثم إننا لا نستطيع زيارته فى المستشفى. لقد ذهب بعضنا أكثر من مرة، لكننا لم نتمكن من رؤيته».

قلت : «إنه يمر بمرحلة دقيقة، لكنها ليست خطيرة، وهو فى أوقات كثيرة يكون نائما فلا يقابل أحدا، ولا يتحدث إلى أحد».

قال الصديق : «إلى متى؟». قلت : «ادْعُ معى ألا تطول هذه الفترة». قال : «إن أهم ما كان يربطه بالحياة هو أصدقاؤه، وإذا انقطع عنهم ولم يعد يراهم ويستمع إلى حكاياتهم ويعلق على ما يقولون فسيشعر بأنه انقطع عن الحياة».

وكان الدكتور «يحيى الرخاوى» قد نبهنا إلى ضرورة الحفاظ على علاقات الأستاذ بأصدقائه وقت تعرضه لمحاولة الاغتيال فى عام ١٩٩٤، فقد رأى وقتها أن أخطر ما يمكن أن يصيب «نجيب محفوظ» الذى عاش حياته كلها بين الناس هو أن ينسحب إلى داخل نفسه بعد الحادث. وهكذا كان الدكتور «الرخاوى» يرتب له مرة فى الأسبوع كى يلتقى من يريدون التعرف إليه. وسرعان ما انتظم هذا اللقاء الأسبوعى كل يوم جمعة. ومع انتظامه عاد الأستاذ بالتدريج إلى بقية لقاءاته الأسبوعية التى كان يلتقى فيها أصدقاءه القدامى الذين كان يطلق عليهم اسم «الحرافيش»، وذلك مساء كل خميس فى منزل المخرج الكبير «توفيق صالح»، وهو الوحيد من «الحرافيش» القدامى الباقى على قيد الحياة، أمد الله فى عمره، بعد رحيل الآخرين جميعا مثل : «عادل كامل» و«أحمد زكى مخلوف» و«محمد عفيفى» والفنان «أحمد مظهر» و«أمين الذهبى» و«ثابت أمين» و«محمود شبانة» و«فريد أمين» و«عاصم حلمى»، وبعض «الحرافيش» العابرين مثل «صلاح جاهين» و«مصطفى محمود» و«لويس عوض» و«أحمد بهاء الدين»، و«الحرافيش» الجدد نسبيا مثل الفنان «جميل شفيق» متعه الله بالعافية.

ويتصور البعض أن كل أصدقاء «نجيب محفوظ» من «الحرافيش». لكن الحقيقة أن «محفوظًا» نفسه لم يكن يطلق هذا الاسم إلا على هذه الشلة القديمة وحدها. وقد قال لى إن «أحمد مظهر» كان صاحب هذه التسمية التى تعنى - حسب التعبير الذى استخدمه محفوظ - «الجرابيع»! أما بقية أصدقائه فكانوا ينقسمون إلى

مجموعات لا يلتقى بعضها مع بعض، بل قد يكون هناك تنافر بين أفراد مجموعة وأخرى، ولا يجمعهم إلا حب «نجيب محفوظ».

وإلى جانب يوم الخميس الذى كان يلتقى فيه «الحرافيش»، ويوم الجمعة بمجموعة الدكتور «يحيى الرخاوى»، ويوم السبت المخصص لى، فقد كان الأستاذ يلتقى مساء الأحد من كل أسبوع مجموعةً من الأصدقاء فى فندق «شبرد» تضم الدكتور «محمد الكفراوى» و«على سالم» و «إبراهيم عبد العزيز» وآخرين، أما مساء الثلاثاء فكان يلتقى فى باخرة «فرح بوت» على نيل الجيزة «جمال الغيطانى» و«يوسف القعيد» و«عبد الرحمن الأبنودى» وغيرهم.

وكنت قليلا ما أحضر هذه اللقاءات إلا لو كانت هناك مناسبة، كأن يكون عيد ميلاده مثلا، أو يكون هناك صحفى أجنبى يريد أن يسجل لقاءه مع الأصدقاء. وكنت ألاحظ أنه يسأل دائما عن الشخص الغائب، فيقول: «هوَّ جمال ما جاش النهارده؟»، أو: «أمَّال فين الكفراوى؟».

بسبب ذلك كله كنت أعلم أن الألم الأكبر الذى كان يشعر به الأستاذ أثناء وجوده بالمستشفى لم يكن ألما جسمانيا بقدر ما كان ألما نفسيا بسبب اضطراره إلى الانقطاع عن جلسات أصدقائه وعن عاداته اليومية التى التزم بها طوال حياته.

دخلت الغرفة فوجدتها باردةً ثانيةً. كان الأطباء مجتمعين حول سريره. كان يبدو متيقظا، فحمدت الله، وانتظرت إلى أن انتهوا من كشفهم، ثم سألتهم عن حالته. قالوا إن الحالة مستقرة، لكن الوقت ما زال مبكرا لحدوث أى تقدم. ما زال يرفض الأكل، لكنه شرب بعض الماء. سألت عن الكليتيْن. قالوا: «أمكن السيطرة عليهما بعض الشىء، لكن الطعام هو الذى سيساعد فى استعادتهما لوظائفهما، وكلما كان ذلك مبكرا كان أفضل، فقد تم أخيرا رصد زيادة فى حموضة الدم بسبب اختلال وظائف الكليتيْن».

يا إلهى! كم كان أطباء «توفيق الحكيم» رحماء! لماذا لم يعجبنا أن يقال لنا «زى الفل» بدلا من هذه التفاصيل المقلقة؟!

خرج الأطباء، وجلست مع الأستاذ وقد رسمت على شفتيّ ابتسامة زائفة تقول له ما لم يَقُلْهُ الأطباء. . تقول له بغير كلمات إنه «زى الفل». قلت له: «خلاص. . أحلام فترة النقاهة طُبعت، وغدا سيرسلون لى النسخة الأولى التى تخرج من المطبعة لأحضرها إليك». بدا عليه بعض الاهتمام. قال: «كم سيكون سعرها؟». قلت: «لم أسأل، المهم أن تصدر». قال: «بل المهم أن تكون فى متناول الناس». قلت: «لا تشغل بالك بالناس الآن، سأسأل لك عن السعر وأقول لك حين أجيئك غدا».

دخل بعض الممرضين لقياس الحرارة وتدوين الأرقام الأخرى التى تظهر على الشاشة الموضوعة فوق السرير، وقال أحدهم إن هناك ارتفاعا فى درجة الحرارة. خشيت أن يتوقف الحديث الذى استجاب له خلال الدقائق الأخيرة، فسألته: «كم كان سعر أول كتاب ظهر لك يا أستاذ نجيب؟». كنت قد سمعت منه هذا الحديث من قبل، لكنى أردت أن يستمر الحديث بيننا. كان بى خوف شديد من أنه لو توقف عن الحديث سيغيب ثانية عن الوعى.

قال لى: «ما انت عارف». قلت: «لقد نسيت». قال: «قرش صاغ واحد». فضحك الممرضون وتركوا ما كانوا يفعلون، وأحاطوا بسريره يستمعون إليه فى شغف، ويبدو أن إحساسه بأنهم ينتظرون أن يسمعوا منه الحكاية دفعه للكلام، فقال: «كانت رواية «عبث الأقدار» أول رواية كتبتها».

قلت: «وكم كان أجرك عنها؟». قال: «لم يكن نقودا، وإنما ٥٠٠ نسخة من الكتاب!». قلت: «وماذا فعلتَ بها؟». قال: «وضعتها على عربة حنطور وأنزلتها عند أول مكتبة صادفتها، وعرضت الكتب على صاحبها، وقلت له إننى لا أعرف ماذا أفعل بها، فرأف الرجل بحالى، وقَبِل أن يأخذ الكتب بالسعر الذى قلته له، وقال إنه لن يعطينى حقى إلا كلما بيعت نسخة».

أشاع «نجيب محفوظ» جوا من البهجة فى الغرفة بما رواه من ذكريات رغم أنه كان يعانى اختلالا فى وظائف الكليتيْن وحموضة فى الدم، وارتفاعا فى درجة الحرارة، وإسهالا، وغيابا متقطعا للوعى. قلت محاولا أن يستمر الحديث: «وهل

قبضت أجرك منه؟»، فلم يرد، فكرر عليه أحد الممرضين: «الأستاذ سلماوى يسألك: هل قبضت أجرك؟»، قال: «إنه يعرف كل شىء».

قال الممرض: «لكن نحن لا نعرف». فقال الأستاذ: «ظللت أمر على المكتبة شهورا طويلة متصورا أننى سأتسلم بضعة قروش ثمن ما تم بيعه من الكتاب، لكن هذا لم يحدث. وبعد فترة لم أجد الكتاب فى المكتبة، فقلت ربما بيعت النسخ عن آخرها، لكنى اكتشفت أن صاحب المكتبة وضع الكمية كلها فى المخزن قائلا: إنها - كما قال لى - ليس لها سوق!».

ضحك الممرضون جميعا وضحكت معهم، لكن القصة لم تكن قد انتهت، حيث واصل الأستاذ وسط ضحكاتنا: «بعد ذلك بسنوات صدرت لى رواية «خان الخليلى»، وكنت مارا بالمصادفة أمام المكتبة، فإذا بى أجد رواية «عبث الأقدار» معروضة وبسعر جديد يزيد على قرش صاغ، وحين رآنى صاحب المكتبة قال لى: لديك حساب عندى، وحاسبنى بالفعل، ولكن على أساس الثمن القديم الذى اتفقنا عليه، وهو قرش صاغ واحد»!

حين دخل الطبيب كان جميع من فى الغرفة يضحكون. قال الطبيب الشاب: «أيوه كده، هو ده الأستاذ نجيب محفوظ اللى اتعودنا عليه، لم يبق إلا أن تأكل فقط».

كان الطعام جاهزا، وبذل الطبيب جهدا كبيرا فى محاولة إقناع الأستاذ بالأكل مستغلا حالة البهجة التى نشرها الأستاذ فى الغرفة. قال له: «أنا الذى سأطعمك اليوم». رد عليه الأستاذ فى أدب: «لا تتعب نفسك، فليست لدىّ شهية الآن». قال الطبيب: «إنى أريد أن أقول للناس اليوم إننى أطعمت الأستاذ نجيب محفوظ بيدى، فأعطنى هذا الشرف».

وبدت علامات الخجل على وجه الأستاذ وهو يرفض الطعام من يد الطبيب. وتذكرت كلمات «هدى» وهى تتحدث عن معاملة المسنين كالأطفال. وإذا بوجه الأستاذ يفقد بالتدريج إشراقه، ويغلق فمه ثم يقول: «إنكم تطعمون رجلا ميتا!».

٨

وصلتنى النسخة الأولى من كتاب «أحلام فترة النقاهة»، فأخذتها وانطلقت إلى المستشفى.

توقف عامل المصعد عند الدور الثانى، فقلت له: «لا، أنا صاعد إلى الغرفة ٦١٢، غرفة الأستاذ نجيب محفوظ». قال: «لقد تركها، وهو الآن فى غرفة العناية المركزة».

هرعت من المصعد إلى غرفة العناية المركزة متجها يسارا من المصعد، وفى الطريق قابلت الدكتور «إبراهيم عوضين» خارجا من الغرفة، فسألته: «ألم تقولوا إنكم حولتم غرفته إلى غرفة عناية مركزة؟». قال: «نعم، لكنه أصيب بالتهاب رئوى حاد وانسداد فى الشُّعَب الهوائية سبَّب له ضيقا فى التنفس، وكان يجب أن نضعه على جهاز التنفس الصناعى لبعض الوقت».

دخلت الغرفة، وكان أحد الأطباء يقوم بضربه على جميع أجزاء جسده والأستاذ يتوسل إليه قائلا: «أرجوك، كفاية، لو سمحت كفاية كده!».

كان هذا هو طبيب العلاج الطبيعى الذى كان يحاول تنبيه أعضاء الجسم وتحريكها، وكان الأستاذ غائبا عن الوعى لا يدرى إلا أن أحدا يقوم بضربه على جميع أجزاء جسمه بلا سبب مفهوم!

أزاح طبيب العلاج الطبيعى عنه الملاءة التى تغطيه وأخذ يثنى ساقه ثم يفردها وكأنها طلمبة مياه يدوية لا تستجيب لمحاولاته المتكررة إخراج الماء من باطن الأرض. كان الأستاذ فى كل مرة يقول وهو ما زال محتفظا بهدوئه: «أرجوك»، ويبعد يد الطبيب عن ساقه ويغطيها بالملاءة كما كانت، فيعيد الطبيب المحاولة ثانية. ثم وصل الطبيب إلى الصدر، فأخذ يخبط بيديه على مكان القلب و كأنه يريد تنشيطه حتى لا يتوقف، فصاح الأستاذ دون أن يفقد أدبه: «أرجوكم سيبونى بقى! إنتو بتعملوا فىّ كده ليه؟».

ملت برأسى بسرعة على أذنه اليسرى وقلت بالصوت الذى يسمعه: «ده العلاج الطبيعى يا أستاذ نجيب، دقائق بس وينتهى»، لكنه لم يسمع شيئا.

غريب حقا أن يتحدث الإنسان وهو غائب عن الوعى، فيقول لأشخاص لا يراهم أن يكفوا عن ضربه، لكنه لا يسمع ما يقال له فى أذنه ولا يجيب عليه.

قلت للطبيب: «يكفى هذا الآن». قال: «الجلسة لم تنته بعد، لكن يمكن أن نعود إليه فيما بعد، إذ ربما يفيق ويكون أكثر تقبلا للعلاج».

ما إن خرجوا حتى دخلت طبيبة شابة تحمل معها سماعة جديدة لأذنه. لم يكن أحد قد طلب استبدال سماعته الحالية، لكن مسئولى المستشفى كانوا يشعرون بأن وجود «نجيب محفوظ» عندهم يستلزم أن يمر عليه كل الأطباء من جميع التخصصات لإجراء جميع الفحوصات الممكنة. كانت تلك وسيلتهم فى الاهتمام بالأديب الكبير، وكثيرا ما شعرت الأسرة بالامتنان تجاهه، وفى كل مرة تحدثت إلى الصحفيين كنت أنقل إليهم شكرنا جميعا لإدارة المستشفى ولأطبائه، وأيضا للأطباء الذين كانوا يُستدعون من خارج المستشفى، مثل الطبيب المعروف الدكتور «حسام موافى» أحد كبار المتخصصين فى الحالات الحرجة، والذى تولى متابعة حالة الأستاذ «نجيب» حين نزل غرفة العناية المركزة، إلى جانب بقية الأطباء الذين كانوا يشرفون على علاجه منذ بداية دخوله المستشفى، وفى مقدمتهم: الدكتور «أشرف حاتم» (صدر) والدكتور «مجدى سليمان» (كلى) بالإضافة للأطباء المتابعين لحالته بشكل عام، مثل الدكتور «إبراهيم عوضين» (قلب) والدكتور «مصطفى الخولى» والدكتور «أشرف عبد اللطيف».

خلعت الطبيبة الشابة السماعة القديمة عن أذنه ووضعت بدلا منها السماعة الجديدة التى أحضرتها معها، لكن السماعة الجديدة أخذت تصدر صفيرا لا يتوقف أزعج الأستاذ، فضغطت عليها الطبيبة داخل أذنه فتوقف الصفير، لكنها ما إن كانت ترفع يدها عنها حتى كانت تعود للصفير. كان الانزعاج يبدو واضحا على تعبير وجهه حتى وهو غائب عن الوعى!

حاولتُ إثناء الطبيبة عن وضع السماعة الجديدة. قلت: «يبدو أنها تحتاج إلى بعض الضبط». قالت: «إنها لا تصدر هذا الصفير إلا إذا كانت غير مثبتة جيدا فى الأذن، لكن إذا ثُبِّتَتْ فسيتوقف الصفير». فسكَتُّ، على حين ظلت الطبيبة تحاول تثبيت السماعة دون جدوى. فى النهاية قلت لها: «واضح أن ذلك الصفير يزعجه. فلماذا لا نريحه قليلا إلى أن يفيق فنحاول ثانية؟». فوافقتنى، وخلعت السماعة الجديدة وهمت بوضع القديمة بدلا منها، لكنى لاحظت أن أذنه مجروحة من الداخل، ربما من السماعة القديمة التى لم يكونوا يخلعونها عن أذنه حتى وهو نائم، فقد يكون احتكاكها بالأذن قد أحدث تلك التسلخات. لكنه كان مصابا بمرض البول السكرى، وهذا - حسب ما أعرف - لا يساعد على التئام الجروح بسهولة.

قلت للطبيبة: «لماذا لا نخلع السماعة تماما طالما أنه نائم الآن؟» (لاحظتُ أننى كنت أتحاشى استخدام كلمة غيبوبة). قالت: «نعم، فهذا أفضل».

أعطت الطبيبة السماعة للممرضة التى وضعتها فى درج «الكومودينو» الموضوع إلى جوار السرير، وما إن خرجت الطبيبة حتى خلعتُ بيدى نظارته أيضا وأعطيتها للممرضة حتى لا تجرحه هى أيضا. قلت لها: «حين يصحو سيطلبها»، فوضعتها الممرضة مع السماعة فى الدرج.

أخرجتُ نسخة «أحلام فترة النقاهة» التى كان ينتظرها. كان غلاف الكتاب جميلا، وقد وُضعت عليه واحدة من أجمل صور «نجيب محفوظ». إنها صورته الشهيرة وهو جالس فى هدوء وقد وضع يديه أمامه فوق عصاه. كانت هذه الصورة تحمل كل سمات شخصية «نجيب محفوظ»: الهدوء والتسامح والطيبة، وأيضا القوة والثبات والاعتزاز بالنفس. كانت هذه الصورة صورتى، فقد التقطها له المصور الفرنسى الكبير «جيل بيران» لتوضع على غلاف كتاب «وطنى مصر» Mon Egypte الذى تَضَمَّن حواراتى معه، وقد صدر فى فرنسا عن «دار لاتيس» عام ١٩٩٦ وفاز بجائزة نادى الكتاب الفرنسى.

نظرت إلى صورة الأستاذ الموضوعة على غلاف الكتاب، ثم نظرت إلى وجهه على وسادة سرير المستشفى. كم من السنين مر منذ التُقطت هذه الصورة؟عشر سنين بالضبط. كم من السنين مر على هذا الوجه منذ دخل المستشفى قبل نحو شهر فقط؟عشر سنين أخرى زادها وجه الأستاذ منذ ذلك السبت الأخير الذى قابلته فيه بمنزله قبل ساعات قلائل من تعثره وسقوطه فى غرفة النوم. لكن صورة غلاف الكتاب كانت هى الأصل، هى الشبه الحقيقى، أما الوجه الراقد أمامى على الوسادة فلم يكن وجه «نجيب محفوظ»، بل كان وجه الزمن، أو هو وجه المرض اللعين الذى لا أعرف من أين جاءه بعد أن كان منذ شهر واحد واقفا على قدميه يودعنى عند باب شقته، ويقول لى إنه سيكون فى انتظارى السبت القادم.

ماذا أفعل بهذا الكتاب؟ لقد كان ينتظر صدوره بفارغ الصبر فى شيخوخته، حيث مباهج الحياة صارت قليلة، وها هو الكتاب قد صدر، وهو الآن بين يدىّ، فماذا أفعل به؟

سأعود بالكتاب غدا، فربما وجدته متيقظا، وعندئذ سأتحدث إليه، وسأصف له الكتاب، وسأقول له إنهم وضعوا صورته (صورتى) على غلافه.

٩

حين دخلتُ عليه الغرفة فى اليوم التالى كان صوته واضحا وكلماته مفهومة، لكنه لم يكن ينطق إلا بكلمتين هما: يا رب يا رب!

ظل يكررهما عدة مرات، على حين كان الأطباء يحاولون وضع قناع الأكسجين على وجهه، لكنه كان يخلعه بيده.

أدركت أنه يتفاعل مع محاولات وضع قناع الأكسجين اللعين على وجهه دون أن يفيق. لابد أن القناع كان يبدو له كالكمامة، فقد كان ينزعه بسرعة ثم يعود ليقول: يا رب يا رب!

هل الألم وحده هو الذى يعيده إلى الوعى؟ لم يكن يشعر بوجودنا . كان يتعامل فقط مع ذلك الضيق الذى يسببه له قناع الأكسجين .

لاحظت أن أنابيب المحاليل قد زادت عما قبل . كانت يده اليسرى قد تورمت من «الكانيولا» التى اخترقت شرايينها .

لاحظوا هذا أيضا ، فنقلوا «الكانيولا» إلى اليد اليمنى وأفرجوا عن اليسرى . كانت تلك اليد اليمنى هى التى خطت كل هذه الروائع التى تركها لنا على مدى ما يقرب من ٧٠ عاما من الكتابة . كانت هى اليد التى أصيبت بعجز جزئى بعد محاولة الاغتيال التى شلت الذراع لفترة ، من الرقبة وحتى أصابع اليد . ظل يستخدمها بعد ذلك بحذر شديد . استغرقت جلسات العلاج الطبيعى فترة تزيد على السنة ، لذا كان دائما يبدو فى صوره بعد الحادثة وقد أمسكت يده اليسرى اليد اليمنى بحرص واضح . والآن ها هى الإبر والأنابيب قد اندست فى عروق هذه اليد . ربما كان غيابه عن الوعى أفضل له حتى لا يرى ما يحدث ليده اليمنى ، تلك اليد التى انحنى عليها كاتب البرازيل العالمى «باولو كويللو» بمجرد أن دخل عليه وقبّلها فى خشوع واحترام أمامنا وهو يقول : «تلك هى اليد التى كتبت لنا أعمالا من أعظم الأعمال الأدبية التى عرفتها الإنسانية» . تعالَ يا «باولو» كى ترى ماذا فعلنا بتلك اليد . تعالَ لترى كيف تورمت وصار لونها قاتمًا لا أستطيع أن أصفه لك ، هو مزيج من الأحمر القانى والأزرق الداكن . أنت قبّلتها ، لكننا فعلنا بها ما لن تعرفه وما لن تراه ، وقبل ذلك كان هناك المخابيل الذين ضربوه بالسكين فى رقبته ، فسَرَى سُمُّهم حتى أطراف أصابع اليد اليمنى !

لفترة طويلة بعد حادث الاعتداء لم يَعُدْ الأستاذ قادرا على استخدام يده اليمنى . كان لديه مخزون من القصص القصيرة كان يرسله إلى مجلة «نصف الدنيا» كلما حل موعد النشر ، لكنه كان فى حاجة لاستخدام يده فى أمور أخرى ، مثل التوقيع على بعض الأوراق مما يخص البنوك والعقود وغيرها . وقد فوجئتُ ذات يوم بالأستاذ يقول لى : «أريدك أن تصنع لى ختما أوقّع به إلى أن تشفى يدى . أنت

موضع ثقتى، ولا أستطيع أن أطلب من غيرك أن يصنع لى مثل هذا الختم الذى سأوقّع به على كل شىء». وتعجبتُ من أن أكبر كُتاب الوطن العربى سيضطر لاستخدام الختم كالبسطاء الذين لا يعرفون القراءة والكتابة!

كان علىّ أن أسأل عمَّن يصنعون الأختام دون أن أخبر من أسأله عن سبب سؤالى. وقد وصلتُ فى نهاية بحثى إلى شارع «محمد على»، حيث ذهبت بنفسى إلى صانع الأختام، فتلك مهمة لم أكن أستطيع أن أرسل فيها مندوبا.

كانت دهشة صانع الأختام بالغة حين قلت له إننى أريده أن يصنع لى ختما يحمل اسم «نجيب محفوظ». نظر إلىّ الرجل مستغربا، فتداركتُ الموقف بسرعة قائلا: «إنه مجرد تشابه فى الأسماء»، فضرب الرجل كفا بكف وقال: «سبحان الله!.. اتنين «نجيب محفوظ»!.. واحد كاتب عالمى، والتانى ما يعرفش حتى يكتب اسمه!».

وكانت دهشة مدير بنك مصر أكبر حين طلبتُ منه استبدال إمضاء الأستاذ «نجيب محفوظ» المعتمد فى البنك بالختم الذى أحمله معى.

لكن ما هى إلا شهور لم تكمل السنة وعاد الأستاذ بفضل العلاج الطبيعى ومواظبته على تدريب يده على الكتابة إلى استخدام يده ثانيةً، فعاد يوقّع بها للبنك ويكتب بها كما كان فى السابق.

نظرتُ إلى تلك اليد اليمنى التى اندست فيها الآن الإبَر الطبية، وقلت إنها أزمة ستمر وتعود تلك اليد المجيدة إلى سابق عهدها تواصل عطاءها الذى شهد له العالم أجمع.

رفع الأستاذ يده اليسرى أمامه كأنه يتحدث إلى جمع غفير. بدا كتمثال «سعد زغلول» الذى نحته فنان مصر العظيم «محمود مختار». كم كان «مختار» محقا حين ضخَّم يد التمثال بهذا الشكل، فقد كانت تلك هى يد الخطيب التى يخاطب بها الجماهير. الآن ها هو أديبنا الأكبر يرفع يده ليتحدث إلينا. كان كف «سعد» غليظا وأصابعه منفرجة، أما يد الأديب فكانت رقيقة مضمومة الأصابع.

قلت لهم : «إنه يريد أن يقول شيئا» . قالوا : «ماذا يريد أن يقول؟» . قلت : «أيّا ما كان الشيء الذى يريد أن يقول فهو ليس لنا وحدنا نحن المحيطين بسريره فى المستشفى» ، فقد بدا وكأنه يخاطب من خلالنا الإنسانية جمعاء ، والتى طالما خاطبها على مر السنين بكتاباته ، لكن الوقت قد جاء الآن كى يخاطبها بالكلام ، ذلك الكلام الذى لم يخرج من فمه .

وضعوا قناع الأكسجين ثانيةً على وجهه ، فمد يده وانتزعه من جديد . قلت : «لماذا هذا القناع؟» . قالوا : «لديه انسداد فى الشُّعَب الهوائية لأنه لا يسعل ، ولذلك فهو لا يطرد البلغم» . علمت أنهم بالأمس قاموا بشفط البلغم من صدره آليا . قالوا إنها عملية مؤلمة للغاية . حمدت الله أننى لم أكن موجودا . كيف يكون لديه انسداد فى الشُّعَب الهوائية ويرفع صوته قويا هكذا بالتضرع إلى الله : يا رب يا رب!

دخل الدكتور «حسام موافى» . قال لى : «إن قناع الأكسجين أفضل من جهاز التنفس الصناعى ، فهناك خطورة بأن تتعود الرئة على الجهاز فيصعب بعد ذلك فطامه عنه» . كان هذا هو التعبير الذى استخدمه ، قلت له : «ماذا تقصد بالفطام؟» . قال : «أقصد أن يُفْطَم كما يفطم الطفل عن الرضاعة ، وهى فى الحالتين عملية يجب أن تحدث بشكل تدريجى» .

ثم انتقل الدكتور «حسام» إلى موضوع آخر ، فقال إنه رتب لمؤتمر صحفى يومى فى الساعة ١٢ ظهرا كى يطلع الإعلام على آخر تطورات الحالة الصحية للأديب الكبير . دعانى أن أحضر معه المؤتمر لطمأنة الناس . قلت له : إن حديثه بوصفه طبيبا سيكون له مصداقية أكبر ، أما أنا فأشعر أننى بحاجة إلى من يطمئننى .

بعد أن خرج الدكتور «حسام» ، لاحظ أحد الممرضين أن فم الأستاذ فى حاجة إلى التنظيف ، فحاول تنظيفه بعصًا طبية صغيرة ملفوفة بالقطن من ذلك النوع الذى يستخدمه الأطباء فى الكشف على الحَلْق ، فأطبق الأستاذ فمه على الفور . قالت الممرضة : «إنه يظن أننا نحاول إدخال جهاز شفط البلغم إلى حَلْقه» .

رحمتك يا رب! كان هذا دورى فى التضرع إلى الله أن يرحمه ويرحمنا أيضا .

تذكرت حديثًا قديمًا دار بيننا منذ حوالى عشر سنوات، كان آنذاك فى الخامسة والثمانين من عمره، قال إنه يتمنى أن تكون نهايته سهلة، فبعض الناس يتركون الحياة وكأنهم كانوا فى نزهة، و دون أن يدروا يجدون أنفسهم قد رحلوا. والبعض الآخر يخرجون منها بتعب شديد!

ثم روى لى أن اثنين من أشقائه تركا الدنيا كُلاً بطريقة مختلفة عن الآخر. أحدهما أصيب بالسرطان، وكان الأسبوعان الأخيران من حياته غاية فى الصعوبة، أما الآخر فمات وهو يشرب الشاى مع ابنه. نادى عليه الابن فلم يرد!

لكن لماذا أتحدث عن الموت وهو ما زال بعدُ على قيد الحياة؟!.. ألم يُصَبْ بالتهاب رئوى من قبل ودخل نفس هذا المستشفى قبل ثلاث سنوات فقط، ووضعوا له نفس هذه الخراطيم الدقيقة فى يديه؟ كنا مضطربين آنذاك كما نحن مضطربين الآن، لكن الموت لم يخطر لنا على بال، فلماذا يلح علينا اليوم؟!.. إنه ما زال حيا يرزق، وها هو يقاوم تلك الكمامة اللعينة التى يريدون كتم أنفاسه بها. أليس فى هذا دليل على أنه ما زال متمسكا بالحياة؟ فلو أنه فقد الرغبة فى الحياة لتركهم يفعلون ما يريدون، لكنه كان يقاوم. فى كل مرة ينزع قناع الأكسجين كنت أزداد ثقة بأنه سيخرج من تلك الأزمة ويغادر المستشفى كما غادره من قبل.

سكن قليلا وترك القناع موضوعا على وجهه. هل نام؟ هل غاب عن الوعى فلم يعد يدرك أن تلك الكمامة الخانقة ما زالت هناك، أم أنه لم يَعُدْ يقاوم؟ أراد أن يرد علىَّ ليُشعرنى بأنه ما زال حيا يقاوم، فمد يده من جديد وانتزع القناع.

أحسنت يا أستاذ! انزعه ثانية!

«اربطوا يده!».. قالها الطبيب.

قلت فى نفسى: «اتركوه! أرجوكم اتركوه! دعوه يقاوم. دعوه يتمسك بالحياة. لا تكسروا إرادته. لا تشعروه ـ كما قالت ابنته «هدى» ـ أنه لم يَعُدْ المتحكم فى نفسه، فى مصيره».

أتوا بشريط من الشاش وربطوا به يده فى الإطار الحديدى للسرير. بحثت عن

أى شىء أتعلل به كى لا يربطوا يده. قلت: «ألا يمكن أن يحتبس الدم فى يده بهذا الرباط؟». قالوا: «لا».

وضعوا قناع البلاستيك الشفاف على وجهه بإحكام أكبر هذه المرة، فلم تكن هناك مقاومة. حاول أن يرفع يده كى ينتزعه، فلم يستطع.

«اتركوه!». قلتها فى نفسى، إذ ربما يرفع يده كى يقول لنا شيئا مثل معبود شبابه «سعد زغلول».

حاول أن يرفع يده وهى مربوطة فى السرير، فكانت ترتفع بضعة سنتيمترات فقط ثم تسقط إلى جانبه. حاول المرة تلو الأخرى بلا جدوى، فاستسلم أخيرا ولم يرفعها ثانية.

خرجت إلى غرفة الاستراحة. كانت خالية، ولأول مرة منذ دخل الأستاذ المستشفى وجدت نفسى أجهش بالبكاء.

١٠

دخلتُ إلى غرفته بالعناية المركزة فوجدت الدكتور «حسام موافى» إلى جانبه، فسألته عن تقييمه الشخصى للحالة. قال: «إنها حرجة بلا شك، لكنها غير ميئوس منها». لم أدْر هل أفرح أم أحزن؟ إن قوله بأن حالته حرجة أحزننى. لقد كنت أعايش حالته بنفَسى يومًا بيوم وأعرف مدى حساسيتها، لكن أن يقول التشخيص الطبى رسميا إن حالته حرجة، فالشعور هنا يختلف. لكن بقدْر ما كان الألم الذى أصابنى من هذا الوصف كان الأمل الذى ملأنى من قول الطبيب بأن حالته غير ميئوس منها. قلت: «إذن هناك أمل». قال: «هناك من المرضى من وصلوا إلى هذه المرحلة، لكنهم خرجوا منها وعادوا إلى حالتهم الطبيعية».

كان الأستاذ ما زال نائما، لكنى لاحظت أن النظارة الطبية عادت فوق عينيه والسماعة عادت إلى أذنه. قالوا إنه طلبهما. إذن فقد عاد إلى وعيه. متى كان ذلك، ولماذا لم يحدث هذا أثناء وجودى؟ إن لدىّ الكثير مما كنت أود أن أحدثه فيه. قالت الممرضة إنه يفيق بين الحين والحين. حاول الدكتور «حسام» إفاقته، فقال: «الأستاذ سلماوى وصل يا نجيب بك»، لكنه لم يسمع ولم يرد.

قال الدكتور «حسام»: «إن حالته حتى الآن مستقرة، وعلينا أن ننتظر قليلا، فمثل هذه الحالات ينبغى متابعتها ليس يومًا بيوم وإنما ساعة بساعة»!

ذهبت معه إلى قاعة المحاضرات التى كان يعقد فيها المؤتمر الصحفى اليومى، ولكنى وجدت أننى ما زلت غير قادر على أن أدخل الطمأنينة إلى نفس أحد، لذا اكتفيت بقول إننى جئت فقط كى أنقل إليهم شكر أسرة الأديب الكبير وأصدقائه لإدارة المستشفى ولفريق الأطباء الكبار الذين يشرفون على متابعة حالته الصحية، وإننى سأتركهم الآن مع رئيس الفريق الطبى، الأستاذ الدكتور «حسام موافى»، ليقدم إليهم تقريرا طبيا مفصلا عن حالة الأديب الكبير. ونزلت بسرعة من المنصة لأعود مرة أخرى إلى جوار الأستاذ.

على باب القاعة وجدت كاميرات أخرى تنتظرنى. استفزتنى إحداها - وكانت تابعة لإحدى القنوات الفضائية - حيث سألنى مذيعها عن «أولاد حارتنا» التى كانت سببا - على حد قوله - فى فوز «نجيب محفوظ» بجائزة نوبل!

قلت: «من الذى قال ذلك؟». قال: «ذلك أمْر معروف». قلت: «ذلك شىء مغلوط ولا يصح أن تردده دون معرفة. أولا جائزة نوبل لا تعطَى لعمل، بل تعطى لكاتب. هناك جوائز تعطى لعمل بعينه، مثل جائزة «بوكر» البريطانية، أو جائزة «بوليتزر» الأمريكية، لكن ليس جائزة نوبل، ولو أنها كانت تُمنح لعمل بعينه لفاز بها بعض الكُتاب الشباب إذا قدموا عملا أدبيا جيدا، لكنها لا تعطَى إلا للكبار لأنها تعطَى للتأثير الذى تركوه على الوجدان الإنسانى على مدى سنوات، والذى لا يمكن أن يقتصر على رواية واحدة. ثم إن حيثيات منح «محفوظ» جائزة نوبل

موجودة ومنشورة، وليس بها ما يقول إنه حصل عليها بسبب رواية واحدة هى «أولاد حارتنا». لقد ذكرت الحيثيات أهم أعمال أديبنا الأكبر، فذكرت «أولاد حارتنا» كما ذكرت أيضا «الثلاثية» وغيرهما من روائعه، فلماذا القول إنه لم يحصل على نوبل إلا بسبب «أولاد حارتنا»؟ . . ».

وقبل أن يجيب المذيع الشاب على سؤالى الاستنكارى، سألته سؤالا آخر: «هل تعرف فى أى سنة نُشرت **أولاد حارتنا**؟». لم يرد. قلت: «نُشرت سنة ١٩٥٩، وحصل الأستاذ على نوبل عام ١٩٨٨، أى بعد نحو ٣٠ سنة. هل لو كانت نوبل ستُمنح إليه بسبب هذه الرواية كانت ستجىء بعد ثلاثة عقود من الزمان؟!».

ويبدو أن جوابى فتح شهية المذيع الذى لاحقنى على الفور بسؤال آخر: «يقول آخرون إنه فاز بنوبل بسبب تأييده لاتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل!». قلت: «كأننا لا نؤمن بأن لدينا كاتبا يستحق نوبل للقيمة الرفيعة لأدبه، فنظل نبحث عن أسباب غير أدبية تفسر لنا لماذا فاز بالجائزة! . .

إن «نجيب محفوظ» يستحق نوبل بأدبه وحده. وقد تأخرت الجائزة فى الوصول إليه لدرجة أن ذلك كان قد بدأ يؤثر على مصداقية الجائزة نفسها. لقد سمعت بنفسى رئيس لجنة نوبل السابق «ستورى آلين» وهو يقول لنجيب محفوظ فى مكتبه بـ «الأهرام»: «لقد أكدْتَ مصداقيتنا بقبولك الجائزة، فالأدب العربى له تراث عريق، وكان تجاهلنا له طوال ما يقرب من القرن يمثل عوارا أصلحته أنت الآن!» . .

فكيف يقول مسئول نوبل هذا ونقول نحن: لا. إنه لا يستحقها. لكنه فاز بها لهذا السبب أو ذاك؟ . . ما هذا الإحساس المعيب بالدونية؟». قال المذيع: «لكنه كان يؤيد كامب ديفيد»!.

قلت: «لم يؤيد كامب ديفيد، بل كان يدعو إلى السلام. هناك فرق بين الاثنين، وقد تَعْجَب لو قلت لك إننى أتصور أن «نجيب محفوظ» لم يقرأ اتفاقية

كامب ديفيد، فكثيرا ما سألنى خلال مناقشاتنا عن بعض بنودها. لذلك فهو لم يعلن قَطّ تأييده لها أو لبنودها، لكنه أعلن قبل الاتفاقية وبعدها أنه مع إقرار السلام وحقن الدماء، ولو أنه قرأها لربما أيدها أو رفضها، لكنه لم يفعل. لقد أيد السلام، وهذا موقف إنسانى وليس موقفا سياسيا.

لقد كان «نجيب محفوظ» من أشد مؤيدى القضية الفلسطينية، ففى الوقت الذى لم يكن مسموحا بأن ينطق أحد بتعبير «الدولة الفلسطينية»، وكان التعبير المتفق عليه هو «الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى»، اختار «محفوظ» اللحظة التى تَرَكَّزَ فيها اهتمام العالم كله عليه، وهى لحظة تسلمه جائزة نوبل، لكى يطالب فى خطاب نوبل بـ«دولة فلسطينية».

وشعرت بأننى لو ظللت أجيب على كل سؤال يوجهه لى المذيع فإن هذا اللقاء العابر سيتحول إلى برنامج حوارى، فاعتذرت للمذيع وعدت مرة أخرى إلى غرفة الأستاذ.

١١

فى اليوم التالى لم يُفِق الأستاذ على الإطلاق!

ظللنا ننتظر كلمة أو إشارة، لكن لا كلمة قيلت ولا إشارة جاءت. كنت كلما دخلت الغرفة لا أرى إلا الأجهزة، ولا أسمع غير صوتها الرتيب!

جلست مع السيدة «عطية الله» نتصفح جرائد الصباح، كانت عناوينها تقول: «محفوظ يسترد وعيه، وحالته ما زالت حرجة».. «حالة الأديب الكبير مستقرة بعد عودة الحرارة لطبيعتها»..

سألتُ السيدة «عطية الله»: «هل صحا فعلا وطلب النظارة والسماعة؟». قالت: «نعم، لكنه لم يَزِدْ عن ذلك، ولم يتحدث ثانية».

كانت هناك غرفة صغيرة - إلى جانب الغرفة التى يرقد فيها الأستاذ فى قسم العناية المركزة - قامت المستشفى بتجهيزها لتكون بمثابة غرفة استقبال ملحقة بغرفته، وكانت السيدة «عطية الله» كثيرا ما تجلس فيها حين يكون الأطباء مع الأستاذ فى غرفته، فهى لا تستطيع تحمُّل بعض الإجراءات الطبية التى كان يخضع لها بين الحين والحين. بالأمس لاحظ مدير المستشفى أن الغرفة حارة بشكل غير عادى. اليوم وجدتُ أنهم وضعوا فيها جهاز تكييف جديدا. قلت لها: «إننى أبلغت الصحافة أمس شكرها لإدارة المستشفى وللأطباء على ما يقومون به»، فسعدَتْ بذلك.

دخلت غرفته ثانيةً، كان لا يزال نائما كما تركته. حاولت مرة أخرى: «إزيك يا أستاذ نجيب؟». أرْعَشَ عينيْه دون أن يجيب. هل يعنى هذا أنه سمع، أم أن ما وصل إليه كان إزعاجا مثل صفير السماعة؟ اخترت أن يكون قد سمع، وأن يكون قد حيانى بحركة عينيه!

خرجت مرة أخرى إلى السيدة «عطية الله». كانت «هدى» و«فاتن» قد حضرتا. قالت «فاتن» إنه بالأمس قال لها: «عايز أرَوَّح بقى!». قلت: «هل تعرَّف عليك؟». قالت: «أتصور هذا، أو ربما ظننى إحدى الممرضات». قلت: «لا أعتقد ذلك، فالممرضات يرتدين زيا خاصا لونه أخضر قان، وهو لون مميز حتى بالنسبة لنظره الذى قد تَخْفَى عليه بعض التفاصيل، لكنه لابدّ سيتعرف على ذلك اللون»، وأضفت: «ثم هناك أيضا الحجاب».

دخلت «هدى» و«فاتن» إلى غرفته وانتظرتا فى الاستراحة مع والدتهما. كانت «هدى» قد درست الإعلام فى الجامعة الأمريكية، أما «فاتن» فدرست إدارة الأعمال.. وعملت «هدى» بضع سنوات فى شركة «هيوز» العالمية للطائرات، على حين عملت «فاتن» فى شركة «زيروكس»، إلى أن قررتا ترك العمل.

بعد دقائق عادتا من غرفته، فجلسنا نتحدث فى أشياء كثيرة، يحدونا الأمل فى أنه سيصحو من نومه بعد قليل، وأنه سيتحدث إلينا كما تحدث بالأمس إلى

«فاتن» . لابد أنه بذل مجهودا كبيرا بالأمس كى يقول لها : «عايز أرَوَّح!» . أكان يقصد أنه يريد أن يعود إلى المنزل ، أمْ قصد أنه يريد أن يذهب؟ . . لقد كانت مجرد كلمة ، فما أدرانا ما كان يقصد بها؟!

كان يحب شعر «المتنبى» ، وفى تلك اللحظة ومض فى ذاكرتى بيت من أبياته :

كَفَى بِكَ أَنْ تَرَى المَوْتَ شَافِيا وحَسْبُ المَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيا

أصلحت «فاتن» وضع الحجاب على رأسها ، فسألتها : «ماذا كان رأى الأستاذ فى ارتدائكما الحجاب أنت وهدى؟» . قالت : «لم يعلق قَطّ على هذا الموضوع . يبدو أنه اعتبرها مسألة شخصية وأنها تخصنا وحدنا» . سكتت «فاتن» قليلا ثم قالت : «لقد دخلَتْ عليه هدى ذات يوم فوجد رأسها مغطاة ، فقال لها : إنت اتحجبت؟ قالت : نعم . قال لها : وفاتن ؟ فقالت : لا ، لم تتحجب» ، فلم يعَلق .

قلت لنفسى : إذا كان لم يفاتح أيّا منهما فى قرار رفض من تقدموا لهما للزواج ، فهل كان سيناقشهما فيما يرتديانه ، حتى لو كان الحجاب؟ . . لقد كان الأستاذ أبا مثاليا ربى ابنتيْه على حرية اتخاذ قرارهما بنفسيهما ، وكان محبا لهما إلى أبعد الحدود ، وكانت السيدة «عطية الله» كثيرا ما تقول لى إنه لم يُرَبِّ البنتيْن ، وإنما هى التى كانت تربيهما ، أما هو فكان فقط يدللهما . لكنه فى الحقيقة رباهما على كل ما تميزت به شخصيته . رباهما على التواضع والخلق الكريم والنفور من حب المظاهر ، كما غرس فيهما الاعتزاز بالنفس ، ولم يكن يسمح لأحد أن يمس كرامتهما ، حتى لو كان هو نفسه . تذكر «فاتن» جيدا أنه أغضبها ذات مرة ، وحين عادت من عملها لم تمر عليه لتحييه كما اعتادت ، فسأل «هدى» : «ألم تَعُدْ فاتن بعد؟» . قالت له : «بل عادت» ، فتوجه على الفور إلى غرفتها ، واعتذر لها عما بدر منه قائلا لها : «لقد كنتُ مخطئا ، وكنت أنت على حق!» .

هكذا كان «نجيب محفوظ» الأب ، أما «سى السيد» فكما قالت السيدة «عطية الله» : «لم نسمع به إلا فى الثلاثية» .

١٢

شيء غير معقول! ما هذه الأخبار؟ من الذى يبثها؟

اتصل بى أحد الصحفيين قائلا: «هل صحيح ما سمعناه؟». قلت: «ما هو الذى سمعتوه؟». قال: «الأستاذ نجيب.. هل حدث له شىء؟». قلت: «أى شىء؟ لم يحدث له أى شىء»، قال: «يعنى هو ما زال بخير؟». قلت: «نعم، نعم، بخير. لكن قل لى بربك من الذى أبلغك بهذا الخبر؟». قال: «زميل صحفى قال لى إنه سمعه». قلت: «أهكذا تستقون أخباركم؟». قال: «لا طبعا، لذلك طلبناك لنتحقق منك قبل أن ننشر أى شىء».

وما هى إلا دقائق حتى اتصل بى زميل آخر قائلا: «ما آخر الأخبار يا أستاذ سلماوى؟». وأحسست من صوته أنه يسأل عن نفس الخبر. قلت: «آخر الأخبار أن الأستاذ نجيب حالته مستقرة، وأن الأطباء غير قلقين من أى شىء». ثم قلت: «هناك مؤتمر صحفى يُعقد يوميا بالمستشفى، لماذا لا تحضره؟». قال: «لقد حضرته أمس وسمعت نفس الكلام الذى تقوله لى الآن، لكن..». قلت: «لكن ماذا؟». قال: «يقولون إنه جد جديد». قلت: «هل تتصور أن المستشفى الذى يعقد مؤتمرا يوميا عن الحالة الصحية للأستاذ لن يعقد مؤتمرا طارئا إذا ما جد ذلك الجديد الذى تتحدث عنه؟!».

لم يكن أحد ممن اتصلوا بى مستعدا للنطق بالخبر الذى سمعه. كان كلٌّ منهم يحاول أن يوحى به فقط دون أن يسميه. لكن فى نفس الوقت فإن أحدا منهم لم يكن يريد أن يفوته الخبر أيضا، فكان يسعى إليه قبل أن يقع، وكان ذلك كله يفرض علىّ عبئا عصبيا هائلا.

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى تطاردنى فيها مثل هذه الأخبار غير الصحيحة، فقبل نزول الأستاذ إلى غرفة العناية المركزة فوجئت ذات يوم بالصحف

تتحدث عن «تدهور خطير فى صحة نجيب محفوظ يؤدى إلى اختلال فى الوعى وفى وظائف الكبد» . . كبد؟ أى كبد؟ من أين جاءوا بذلك؟ . . وخبر آخر يقول : «صحة الأديب العالمى نجيب محفوظ تدخل منعطفا خطيرا» . . ياللصياغة ! أى «منعطف» هذا الذى يتحدثون عنه؟

يومها دخلت إلى الغرفة ٦١٢ ، فوجدت الأستاذ غائبا عن الوعى ، وكان الأطباء مجتمعين حوله ، فعبَّرت لهم عن غضبى من تلك الأخبار التى نسبتها الصحف إلى مصادر من المستشفى ، فأكدوا لى أنهم يلتزمون فى تصريحاتهم بالدقة ، وأنهم يحاولون إحداث توازن بين عدم إثارة قلق الناس وبين حق المواطنين فى معرفة تطورات أديبهم الكبير .

لكن غياب الأستاذ عن الوعى كلما جئت لزيارته كان يجعلنى عصبيا أكثر من اللازم . لذا لم أجد فى نفسى القدرة على تقبل ما قيل . قلت : «لكن الأخبار التى نُقلت عن لسانكم غير صحيحة» . وجدت نفسى أترك كل ما كان فى الخبر وأتمسك بما ورد فقط عن اختلال وظائف الكبد . قلت : «هل صحيح أن هناك اختلالاً فى وظائف الكبد؟ هذا تشويش لا لزوم له !» . وكان «يوسف القعيد» موجودا ، فحاول أن يلطف الجو قائلا : «ربما كان ذلك خطأ من الصحفى الذى كتب الخبر وليس من أطباء المستشفى» . قلت : «لماذا نضيف أمراضا جديدة للرجل؟ أليس لديه ما يكفى؟» .

الآن تم تنظيم هذه التصريحات بالمؤتمر الصحفى الذى كانت تعقده المستشفى . لكن ما هى هذه الأخبار الجديدة التى لم تكن تُنسب لأى مصدر ، وكان يكفى لأى «زميل» - كما قيل لى - أن يقولها أو يسمعها ، حتى تنتقل بسرعة النار فى الهشيم؟

دخلت على الأستاذ ، فوجدته كما تركته بالأمس . . نائما . كانوا قد نزعوا عنه قناع الأكسجين البلاستيكى الشفاف ووضعوا بدلا منه أنبوبا كبيرا قطره حوالى بوصة فى حلقه . هل هذا هو جهاز التنفس الصناعى؟ هل هو جهاز شفط البلغم الذى كان يُحكِم إغلاق فمه حتى لا يضعوه له؟

أيًّا كانت فائدة هذا الأنبوب القبيح الذى أصبح يسد حلقه فإنه سيمنعه تماما من الكلام. حتى حين يفيق لن يتمكن من الكلام.

كان شعر ذقنه الذى حلقه له الحلاق قبل حوالى أسبوعين قد نما ثانية. كان ما زالت به بعض الشعيرات التى لم يدركها الشيب، والتى رأيت فيها دليلا على تمسك جسده بالحياة. يقولون إن «مارى أنطوانيت» تحول شعرها بالكامل إلى الشيب وهى فى طريقها إلى المقصلة. لكن ها هو شعر الأستاذ ما زال أسود كما كان فى شبابه رغم حالته الصحية، ورغم ذلك الهزال البادى على جسده.

لن أستمر أنظر إليه هكذا وهو فاقد الوعى وهذا الأنبوب مغروس فى حلقه.

لم أستطع البقاء فى الغرفة أكثر من ذلك.

لم أستطع البقاء فى المستشفى.

خرجت، لكننى لم أستطع الذهاب إلى مكتبى، وجدت نفسى غير قادر على التركيز، وغير قادر حتى على اتخاذ قرار حول ما يجب علىَّ أن أفعله الآن. إلى أين أذهب؟

رآنى السائق خارجا من المستشفى، فأقبل نحوى بالسيارة. قلت له أن يبقى حيث هو إلى أن أعود. عبرت الشارع العريض وأنا لا أعرف إلى أين أمضى. إنه شارع النيل، وفى نفس الوقت هو شارع «جمال عبد الناصر».. مثله مثل أشياء كثيرة فى بلادنا تحمل أكثر من اسم، ولها أكثر من وجه، وتعبّر عن أكثر من معنى. لماذا لا نكون محددين؟ لماذا لا نعرف الحقيقة؟ هل الأستاذ فى حالة خطيرة، أم أن حالته مستقرة؟ ومتى سيخرج من هذا المستشفى؟ كما كنت أود أن أعرف: هل الأطباء يقولون لنا كلامًا ويصرحون للصحف بكلام آخر؟ وأين هى الحقيقة؟ هل هذا الشارع هو شارع النيل، أم هو شارع «جمال عبد الناصر؟».

إن هذا الشارع هو غالبا شارع النيل للبعض، و«جمال عبد الناصر» للبعض الآخر. وربما هكذا أيضا كانت حالة «نجيب محفوظ»، فهو فى حالة خطيرة فى تصوّر البعض، لكن حالته لا تدعو للقلق فى تصوّر البعض الآخر!

قابلني على الجانب الآخر من الشارع عدد من المقاهي النيلية. كان الجو حارا. وجدت نفسي أدخل أحدها. لا أذكر أنني شاهدت هذا المقهى من قبل، لكن قدميَّ ساقتاني إليه فدخلته وأنا مسلوب الإرادة. جلست في طرفه البعيد في مواجهة النيل.

للنيل قدرة عجيبة على إخماد كل ضجيج. خبا صوت الشارع بصخب السيارات وصياح المارة. لم أعد أسمع شيئا. كأنني في غرفة عازلة للصوت. جلست بضع دقائق دون أن يقترب مني أحد، إلى أن وصلت إلى قرار بأنني سأختار الحقيقة التي تعجبني. هذا الشارع اسمه شارع «جمال عبد الناصر»، فالنيل ليس في حاجة لأن يسمى باسمه شارع، و«نجيب محفوظ» حالته مستقرة وليست ميئوسا منها. هذه هي الحقيقة.

جاءني «الجارسون» يسألني عما أريد. لم أرد. وجدني شارد الذهن، فقال: «أأحضر لك فنجان قهوة سادة؟». قلت: «بالتأكيد لا. أعطني شرباتا»، نظر إليَّ الرجل في دهشة. خشيت أن يتصور أنني مجنون. قلت: «أقصد عصيراً أو أي شيء مثلج».

جلست وحدي أنظر إلى النيل، وتذكرت كم كان الأستاذ يحدثني عن هذا النهر العظيم، والذي كان أكثر شيء افتقده حين ضعف بصره ولم يعد يرى الأشياء البعيدة. تذكرت كيف قال لي إنه بُهِرَ بالنيل منذ الصغر، وإنه كان يتدلى بجسده الصغير من فوق سور كوبري «أبو العلا» ليتفرج على تدفق مياه النيل، ووالدته ممسكة به حتى لا يسقط في الماء.

وقد بلغ من شدة عشق «نجيب محفوظ» للنيل أنه قرر أن يعيش في عوامة في النيل في بداية حياته الزوجية، وكان يقول لي دائما إنه أمضى أجمل سنوات حياته في تلك العوامة التي سكنها سبع سنوات، والتي كانت تقابلها على الناحية الأخرى من الشاطئ عوامة «أحمد ماهر باشا» رئيس الوزراء وعوامة الفنانة «منيرة المهدية»، ولولا أن زوجته قررت ذات يوم أن تترك العوامة لما تركها الأستاذ أبدا. كانت ابنة جيرانهم في العوامة المجاورة قد سقطت في الماء ولقيت حتفها، فعاد «محفوظ» إلى

عوامته ليجد زوجته ممسكة بابنتهما الكبرى «أم كلثوم» وهى تقول له إنها لن تبقى فى هذه العوامة يوما واحدا بعد اليوم. وتأثر «نجيب» بقصة غرق ابنة الجيران. فى رواية «بداية ونهاية» لقيت «نفيسة» حتفها غرقا فى النيل، فالنيل هو باعث الحياة، وهو الذى يحصدها أيضا. فى الريف يعرفون قيمة النيل الذى يأتى لهم بالنماء، لكنهم أيضا يلقون بنفايتهم وبالحيوانات النافقة فى النيل. مع ذلك فالنيل باق بقاء الزمن ذاته.. تبدأ الحياة وتنتهى وهو متدفق إلى الأبد.

الجلسة فى هذا المقهى قريبة جدا من النيل. إنى أكاد ألامس الماء من مقعدى. جاء «الجارسون» بشراب لم أنظر إليه. دفعت له ثمنه وخرجت.

حين يصحو الأستاذ فى زيارتى المقبلة سأخبره أننى وجدت مكانا يستطيع أن يشاهد فيه النيل الذى كان يتوق إليه. سأقول له إن هذا المكان ليس ببعيد عن منزله.

١٣

كنت أجلس مع أسرة الأستاذ فى حجرة الاستراحة حين دخل علينا الدكتور «حسام موافى». بعد أن حَيَّا الأسرة أخذنى جانبا وقال: «أنا فى حاجة إلى مساعدتك». قلت: «كيف؟». قال: «حالة الأستاذ نجيب وصلت إلى مرحلة خطيرة نظرا لعدم تناوله الطعام منذ ما يقرب من عشرة أيام الآن. نحن نحاول مع الكليتيْن بقدر ما نستطيع، لكن بدون أن يعمل جهازه الهضمى فتلك كلها محاولات يائسة!». قلت: «كيف تريده أن يأكل وقد غاب الآن تماما عن الوعى؟». قال: «يقولون إنه أفاق أمس وتحدث إليهم». قلت: «إنهم يقولون لى ذلك كل يوم. لكنى أجيئه يوميا، وفى بعض الأحيان مرتين فى اليوم، وقد مضت الآن عدة أيام لم أره فيها متيقظا على الإطلاق». قال: «هناك عملية جراحية بسيطة جدا يمكن أن نجريها له فيما لا يزيد عن ربع ساعة». قلت: «ما هى؟». قال: «سنعمل فتحة صغيرة فى المعدة نُدخل منها خرطومًا نحقنه من خلاله بالطعام».

يالهذه الخراطيم التى تخترق جسده، والتى أصبح يتزايد عددها كل يوم!

قلت: «لماذا لا يتم إدخال هذا الخرطوم عن طريق الأنف كما يحدث دائما بدلا من تلك العملية الجراحية؟». قال: «لقد حاولوا بالأمس عدة مرات فلم يتمكنوا. فى كل مرة كانوا يحاولون إدخال الخرطوم كانوا يجرحونه وينزف». ثم قال: «إن العملية التى أقترحها بسيطة جدا، وقد أجريتها لوالدتى وعاشت بها سنتين». قلت فى نفسى: «أتمنى ألا يظل هو أيضا سنتين يأكل بهذا الخرطوم». أضاف الطبيب: «إن حالته بدون طعام تتدهور كل يوم، وليست هناك وسيلة أخرى أمامنا الآن، إلا إذا أردنا أن نتركه يذهب منا بالتدريج ونحن نتفرج عليه». صعد الدم فى رأسى وقلت: «لا، كيف يذهب؟! إذا كانت تلك هى الوسيلة الأخيرة فلنجربها». قال: «إن السيدة حرمه ترفض العملية وتقول إنها لا تريد له أن «يتبهدل»..».

عدت على الفور إلى الاستراحة، وحاولت إقناع السيدة «عطية الله» بجدوى العملية الجراحية باعتبارها الحل الوحيد أمامنا، فإذا لم تتحسن حالته بالعملية فإنها لم تكن ستتحسن بدونها. انضمت إلىَّ «هدى» و«فاتن» فى محاولة إقناعها، فوافقت. وفى خلال دقائق كان قد تم استدعاء الجراح الذى سيجرى العملية وإعداد غرفة العمليات الواقعة فى نفس الدور.

انتهت كل الاستعدادات، وخرجتُ ألقى نظرة على مكان غرفة العمليات التى سيُنقل إليها الأستاذ، وإذا بى أجد أمام غرفة العناية المركزة التى يرقد فيها الأستاذ كاميرات التليفزيون منصوبة كالمدافع الرشاشة الموجهة إلى الباب الذى سيخرج منه على السرير ذى العجلات إلى غرفة العمليات.

استشطت غضبا. ما هذا؟ ومن الذى سمح بذلك؟ طلبت من المصورين أن يتركوا المكان فورا، وذهبت إلى مدير المستشفى الذى كان يقف مع بقية الأطباء عند غرفة العمليات يتابعون ما يجرى من استعدادات، وسألته من الذى أصدر أمرا لمصورى التليفزيون بأن يُدخلوا كاميراتهم إلى هذا المكان وأن يصلوا بها إلى باب غرفة الأستاذ وهو فى هذه الحالة؟

طلبت منه أن يأمر بإخلاء المكان وإلا فإن الأستاذ لن يخرج من غرفته. والحقيقة أن المدير استاء كثيرا من مشهد الكاميرات وهى مصوبة فى اتجاه غرفة العناية المركزة بهذا الشكل، وخلال دقائق كان قد تم إخلاء الدور الثانى من أجهزة الإعلام ووُضعت حراسة مشددة على غرفة العمليات.

كانت «هدى» تروى لى قبل قليل كيف أن فتاة اخترقت بالأمس فقط حاجز العناية المركزة مدعية أن والدتها ترقد فى الداخل، ثم اكتشفوا أنها تخفى كاميرا داخل ملابسها كانت ستستخدمها لتصوير الأستاذ.

حين دخل الأستاذ غرفة العمليات فى النهاية، دعانى الأطباء إلى استراحتهم انتظارا لانتهاء العملية، وكان بينهم الصديق العزيز اللواء «محمود الفيشاوى» الذى كانت تعود علاقتى به إلى وقت كان يعمل بمكتب وزير الداخلية. تناولنا الشاى سويا، وحين انتهت العملية الجراحية عرّفونى بالطبيب الذى أجراها، فشكرته.. وصاحبت سرير الأستاذ ذا العجلات إلى غرفته.

بمجرد أن عاد الأستاذ إلى غرفته، قام الدكتور «حسام موافى» بالاطمئنان بنفسه على الخرطوم، فرفع الملاءة من على جسد الأستاذ ونظر جيدا إلى الخرطوم الذى يخرج من معدته. كان خرطوما قطره لا يزيد عن سنتيمتر واحد و ينتهى بثلاث فتحات. وضع الدكتور أمامى فى اثنتين منها «أمبول» محلول صغير مما يُخلط بالأدوية لإعطاء الحُقَن فسدهما، وترك الفتحة الوسطى كى تُستخدم فى حَقْن الطعام عن طريق سرنجة.

قال الدكتور «حسام»: «يجب الانتظار ٢٤ ساعة قبل حقن الطعام حتى يلتئم الجرح». قلت: «إنه يعانى مرض السكر، قد يتأخر التئام الجرح». قال: «أنا عادةً أفضّل الانتظار ٣٦ ساعة». قلت: «ماذا ستطعمونه؟». قال: «فى البداية ربما بزبادى مخلوط بعسل النحل، ثم بعد ذلك بكل شىء شريطة أن يهرس الطعام جيدا فى الخلاط». قلت: «إنه لم يكن يتناول السكريات على الإطلاق». قال: «العسل يحرقه الجسم بسرعة ولا يبقى منه شيئا»، ثم طمأننى قائلا: «سيكون هناك طبيب

تغذية متخصص سيحدد الوجبات التى سيتم حقنه بها كل ساعتين» . كنت أريد أن أقول أيضا إن الأستاذ كانت أكلته ضعيفة جدا ، وأخشى لو تم إطعامه قسرا كل ساعتين أن يُحدث ذلك صدمة لجهازه الهضمى ، خاصة أنه ممتنع عن الطعام منذ نحو عشرة أيام ، لكن الطبيب قال إنه سيكون هناك متخصص تغذية ، ولابد أنه يعرف أن شيئا لم يدخل جوفه منذ فترة طويلة .

بدلا من ذلك قلت : «تقديرك أن نتيجة التغذية ستظهر عليه متى؟» . قال : «بضعة أيام ليس أكثر» .

إذن هى بضعة أيام ليس أكثر وتتحسن حالته بعد أن يذوق الطعام مرة أخرى . عندئذ بالتأكيد سيعود إليه وعيه . ومن يدرى ، ربما لن تمر إلا بضعة أيام أخرى ويغادر المستشفى تماما كما دخلها . إنه ليس مصابا بمرض عضال ، ولا بمرض لا يعرف له الطب علاجا . لقد حضر إلى المستشفى لعمل «غرزتين» فى مؤخرة رأسه ، ولم تكن حالته الراهنة تتناسب على الإطلاق مع ما دخل من أجله ، لكنها كلها مضاعفات بسيطة ، فالالتهاب الرئوى ليس مرضا مزمنا ، والكليتان سينصلح حالهما بعد تناول الطعام ، وعندئذ لابد أن الوعى سيعود ، وسيشكر الأستاذ أطباء المستشفى واحدا واحدا كما فعل من قبل ، ثم يعود إلى بيته . وفى مساء يوم السبت التالى مباشرة لخروجه سأرن جرس باب منزله فى تمام الساعة السادسة فتفتح لى السيدة زوجته ، وأدخل إلى غرفة الاستقبال فى نفس وقت دخوله هو إليها من ناحية غرفة مكتبه وهو يربط حزام «الروب» الحريرى حول وسطه ، ثم يقبّلنى على كتفىّ الاثنتين كما كانت عادته ، ويجلس على يمين الأريكة ، وأجلس أنا إلى يساره حيث الأذن التى يسمع منها . سأحكى له أخبار الدنيا التى لم يكن يحب أبدا أن تنقطع صلته بها . وسينسى وننسى معه كل الإساءات التى وُجهت لنفسه ولجسده ، لروحه وليده ، وسيجلس وعلى وجهه ابتسامة الرضا يقص علىَّ ذلك «الحلم» الذى سجلته له بصوته ، لكنه لم يظهر فى كتاب «أحلام فترة النقاهة» لأنى ما زلت أحتفظ به :

رأيتنى فى مستشفى لإجراء بعض التحاليل، وهناك علمت أن «مصطفى النحاس» يرقد فى العنبر المجاور، فذهبت إليه، وتأثرت لمنظره، وقلت له: «سلامتك رفعة الباشا!». فقال: «إن المرض الذى أعانيه هو الثمرة الحتمية لنكران الجميل»، فقلت له: «عند الله لا يضيع أجر من أحسن عملا».

١٤

اتصل بى الناشر الأمريكى «سيدنى شيف» وفى صوته نبرة غضب وألم قائلا: «كيف تسمحون بأن يصل «نجيب محفوظ» إلى هذا الحال؟!». كان «شيف» قد علم عن بعض الصحف فى الولايات المتحدة أن الحالة الصحية للأديب المصرى الكبير تتدهور منذ دخل المستشفى، وأنه الآن فى حالة «كوما» كاملة لا يعى أى شىء مما حوله. قلت له: «الحالة ليست بهذا السوء، وهو ليس فى «كوما»، إنما حالة الوعى غير مستقرة. هذا كل ما فى الأمر». قال: «لماذا لا يأتى إلى الولايات المتحدة؟ إن «نجيب محفوظ» قيمة إنسانية كبيرة، ولدينا هنا أفضل ما وصل إليه الطب». قلت: «لقد طُرحت بالفعل فكرة السفر إلى الخارج، لكن الأطباء وجدوا أنه لا يعانى مرضا ليس له علاج فى مصر». قال: «إذن لماذا لا تعالجونه طالما علاجه موجود فى مصر؟ لماذا تتدهور صحته؟»، ثم قال: «إننى أتحدث نيابة عن عدد كبير من الناشرين الذين يشعرون حقا بالقلق»، وواصل قائلاً: «إن محفوظًا عبقرية إنسانية لن تتكرر، وستنتظرون عدة عقود قبل أن يجيئكم محفوظ آخر فى العالم العربى».

بدأت أتضايق من نبرة صوته التى بدت كالتوبيخ، وقلت له: «ادْعُ معنا يا سيدى أن يقوم من وعكته هذه بالسلامة». فقال لى وقد انتقل الضيق منى إليه: «إنه بحاجة لأكثر من مجرد الدعاء، ونحن نحمّلكم المسئولية»!

أية مسئولية تلك التى يتحدث عنها «شيف»؟ إن صحته ستتحسن بإذن الله بعد العملية، والعودة إلى الغذاء مرة أخرى سيكون لها تأثيرها على الحالة العامة. ثم إن

«نجيب محفوظ» مثابر ويتمتع بإرادة فولاذية، وإنى لن أنسى أبدًا كيف أن هذا الشيخ الذى حصل على أعلى تقدير فى العالم على ما كتب، عاد بعد محاولة الاغتيال يتعلم الكتابة مرة أخرى وقد تجاوز سن الثمانين دون أن أراه يوما يشكو أو يتذمر!

كانت الحادثة قد أصابت ذراعه اليمنى بعجز جزئى منعه من الكتابة فترة طويلة. وقد ظل يخضع لجلسات يومية للعلاج الطبيعى، ونصحه الأطباء أن يحاول تدريب يده على الكتابة قائلين إن ذلك سيساعد فى إعادة تأهيلها. كنت كلما زرته يطلعنى على كراسته الصغيرة التى كان يدرب فيها يده على الكتابة، فيكتب بعض أسماء أصدقائه أو أرقام تليفوناتهم.

فى إحدى المرات، وكان قد مضى على تلك التدريبات عدة أشهر، دخلت عليه لأجد وجهه متهللا وهو يقول لى: «تعالَ، سأريك شيئا!». ثم أطلعنى على الكراسة ذات الصفحات المسطرة التى كان يكتب فيها تدريباته اليومية، وقال: «ألا تلاحظ شيئا؟ إنى لم أعد أنزل عن السطر».

كاد الدمع يطفر من عينى، لكنى تمالكت نفسى وأنا أعبّر له عن سعادتى بهذا التقدم الكبير الذى حققه. إن العجز عن الكتابة فى مثل حالته كان يكفى لتحطيمه إلى الأبد، لكنه تماسك واستطاع بإرادته أن يستعيد القدرة على الكتابة مرة أخرى. الآن لابد أنه سيستعيد صحته بقوة إرادته هذه. صحيح أنه وصل إلى سن الخامسة والتسعين، لكن والدته توفيت وقد تخطت المائة بسنوات، كما أن اثنين من أشقائه عاشا إلى ما يقرب من التسعين.

حين وصل إلى سن التسعين سألتُه يوم عيد ميلاده: «بماذا تشعر فى هذه السن؟». قال: «أشعر أننى فى محطة سيدى جابر، فحين كنت أسافر إلى الإسكندرية كل سنة كنت أنزل دائما فى المحطة الأخيرة، المسماة محطة مصر. لكن حين كان القطار يتوقف قبلها فى محطة سيدى جابر كنت أدرك أنه لم يَبْقَ لى إلا محطة واحدة لأغادر القطار، وأنه لم يعد لدىَّ وقت إلا لألملم أشيائى وأستعد للنزول».

وكان «نجيب محفوظ فى سيدى جابر» هو الاسم الذى اخترته لكتابى الذى جمعت فيه بعض أقوال أديبنا الأكبر، والتى كنت أنشرها بالإنجليزية فى جريدة «الأهرام ويكلى»، وقد أصدرتْه الجامعة الأمريكية بمناسبة بلوغه سن التسعين عام ٢٠٠١.

لقد مضت الآن خمس سنوات على هذا الحديث وعلى إحساس «محفوظ» بأنه فى محطة سيدى جابر، لكن من قال إن القطار تحرك خلال تلك السنوات الخمس؟ لا، إنه لم يتحرك منذ ذلك الوقت. لم يصل بعد إلى المحطة الأخيرة.

كان هذا هو ما يدور فى ذهنى وأنا فى الطريق إلى المستشفى. كم أتمنى أن أجده متيقظا فأتحدث إليه ويتحدث إلىّ، يسألنى عما يجرى فى العالم، ويطلب منى أن أروى له عن قراءاتى فى الصحف الأجنبية، سواء فى الثقافة والأدب، أو فى السياسة، أو فى الاختراعات العلمية الحديثة التى كان يوليها اهتماما خاصا، فقد كان إيمانه بالتقدم العلمى بلاحدود.

فى بعض الأحيان كنت أقرأ عليه مقتطفات من الآداب الأجنبية تكون قد لفتت نظرى وتصورتُ أنها يمكن أن تعجبه. من القصائد التى كان كثيرا ما يطلب منى إعادة قراءتها منذ قرأتها عليه أول مرة: الترجمة الإنجليزية لقصيدة شاعر الحركة الوطنية الكوبية فى أواخر القرن التاسع عشر «خوسيه مارتى»، والتى كان يقول فيها:

أزرع وردة بيضاء

فى الصيف كما فى الشتاء

للصديق المخلص

الذى يمد لى يده صادقا..

وللشخص قاسى القلب

الذى ينزع قلبى من بين ضلوعى.

لا أزرع شوكا ولا عوسجا،

أزرع وردة بيضاء.

قلت له إننى سأبحث عن الترجمة العربية للقصيدة، لكنه كان يقول إنه يحب أن يسمعها فى ترجمتها الإنجليزية. فى كل مرة كنت أقرؤها عليه كنت أشعر أن «مارتى» لا يمكن أن يكون قد كتب تلك القصيدة إلا عن «نجيب محفوظ» الذى ملأ حياتنا ورودا بيضاء أسعدنا بها جميعا. حتى قساة القلب منا الذين هاجموه لم يضمر لهم إلا تلك الوردة البيضاء التى لم يكن يملك غيرها.

أخذتُ معى مرة أخرى كتاب «أحلام فترة النقاهة». سيطلب منى أن أصف له شكله وغلافه، وربما طلب منى أن أقرأ له شيئا منه.

وصلت إلى المستشفى لتقابلنى الأخبار بأنه أصيب بنزيف فى القولون، وأن الأطباء حاولوا طوال الليل إيقاف النزيف مستخدمين منظارا داخل الأمعاء حتى يتمكنوا من كَيّ موضع النزيف.

يا رب! أما آن لهذا الانتهاك أن يتوقف! هل أقول للأطباء كُفُّوا عن انتهاك جسده واتركوه يموت؟! سامحنا أيها الإنسان الجميل الذى لم يتسبب فى إيذاء أحد طوال حياته. سامحنا إن آذيناك أو سببنا لك ألما!

لن أدخل الغرفة. لن أستطيع مواجهته. ماذا أقول له عما حدث؟ لكن من قال إنه سيحتاج منى تفسيراً أو تبريراً؟ لقد كان أكثر من يتفهم الضعف الإنسانى، وفى بعض الأحيان يلتمس له العذر أيضا. كان يقول عمن هاجموه من الأدباء بسبب فوزه بجائزة نوبل: «إن علينا أن نتفهم موقفهم؛ فهم بشر، وربما وُعد البعض منهم بالجائزة قبلى».

اليوم أطلب منك يا أستاذ أن تلتمس لنا العذر كما التمسته لنقادك. إنه الضعف البشرى الذى تعرف أننا لا نملك حياله شيئا. هو تمسُّكنا بك على قيد الحياة، فالحياة بدونك ستفقد العَلَم الخفاق الذى رفع اسمنا عاليا بين أمم الأرض جميعا، كما أنها ستفقد أيضا من كان يزرع لنا الورد الأبيض.

نظرتُ من باب الغرفة . كان نائما يخضع لعملية نقل دم تعويضا عما فقده من النزيف . كانت الحجرة هادئة لا صوت فيها ، وكان الدم ينزل قطرة قطرة فى الخرطوم الدقيق الذى يصل إلى يده اليمنى عن طريق «الكانيولا» .

خطوت إلى داخل الغرفة ، ومشيت بخطى مثقلة حتى وصلت إلى حافة سريره . كان وجهه يبدو شاحبا ، لكنى تعرفت فيه على الابتسامة الصادقة التى رأيتها وهو يعلن عفوه عن مهاجميه حين حصل على نوبل قبل ثمانية عشر عاما .

قال لى الطبيب إنه ما زال تحت تأثير المهدئ الذى أخذه بعد عملية الكى . ملعون ذلك المخدر ، لن أعبأ به . ملت على أذنه اليسرى وقلت : «صباح الخير يا أستاذ نجيب» . قال لى الطبيب : «لن يسمعك ، فهو لم يُفقْ بعد» . قلت : «أعرف ذلك ، إن ما لا أعرفه هو لماذا نزف؟» . قال الطبيب : «ربماَ هى قرحة قديمة فى القولون . لقد بذلنا جهدا كبيرا إلى أن عرفنا أن النزيف من القولون ، فقد فوجئنا بهذا النزيف الشرجى الذى لم نكن نعرف سببه» . قال طبيب آخر إن سبب النزيف هو تلك الكميات الكبيرة من المضادات الحيوية التى يتناولها ، وطول استخدامه لجهاز التنفس الصناعى .

خرج الأطباء ، لكنى ظللت أسأل : لماذا نزف؟ هل كانت تلك وسيلة الجسد فى إعلان رفضه للطعام الذى أدخلناه إلى معدته قهرا؟ هل تلك هى ثورة الجسد على ما تم رغم إرادته؟ إن «نجيب محفوظ» لم يكن أكُولاً على الإطلاق ، وكان لا يضع شيئا فى فمه ما بين الوجبات . أما فى سنواته الأخيرة فلم يكن يتناول إلا الفُتات ، فهل أخطأنا حين أدخلنا ذلك الخرطوم إلى معدته ، وأخذنا نحقنه بالطعام كل ساعتين؟وماذا باستطاعتى أن أفعل الآن؟ هل أنزع ذلك الخرطوم من معدته وأخلصه منه؟!

كم كنت أود أن يتحدث . أن يقول لنا بأية طريقة ما يريده حتى ننفذه له . هل قاله لنا لكننا لم نسمع؟ لم نفهم؟ قاله لنا بالكلمات حين صاح فى أدب : «أرجوكم سيبونى . . كفاية!»؟ قاله ربما بالإشارة حين ظل ينزع بيده قناع

الأكسجين، وحين قال إنه يريد أن «يروَّح»؟ الآن بعد أن أسكتنا فمه بالمهدئ وربطنا يده فى الإطار الحديدى للسرير لم يَبْقَ إلا أن يقوله بالدم، فهل نسمع؟ . . هل نفهم؟

١٥

قالت لى السيدة «عطية الله» إنها فى آخر مرة سمعته يتكلم قبل أن يغيب عن الوعى كان ينادى أشخاصا رحلوا جميعًا عن عالمنا، وأنها تعرفت من بينهم على اسم «صلاح جاهين». حين سمعَتْ الممرضات صوته وهو ينادى حاولن التحدث إليه، فلم يُجبْ عليهن وظل يتحدث إلى الآخرين الذين رحلوا. لكنه الآن لم يعد يتحدث، لا معى ولا مع من رحلوا. أرحل بعقله معهم، أم هى «الكوما» التى كتبت عنها الصحف الأجنبية؟ إنه ما زال فاقدا للوعى، لكننى كنت أحس أنه ما زال معنا، وأنه كان يشعر بى كلما دخلت عليه الغرفة. لم يكن بحاجة للكلام ولا للسلام كى يُشعرنى أنه يعلم بوجودى، وأنه يشعر بكل ما يجرى فى الغرفة.

قلت له فى أذنه الخبر الذى سألنى كثيرًا عنه: «خلاص يا أستاذ نجيب، القتال حيقف النهارده فى لبنان. توصلوا لاتفاق وقف إطلاق النار».

منذ عدة سنوات، قدم المخرج العالمى إسبانى الأصل «بدرو ألمودوفار» فيلما بعنوان «تحدث معها»، اعتمد فيه على النظرية الطبية القائلة بأن من يُصَبْ بغيبوبة يفقد القدرة على التفاعل مع ما يجرى من حوله كالمشلول الذى لا يستطيع الحراك، لكنه يعى تماما كل ما يحيط به؛ لذا لا يجب إهماله وعدم التعامل معه لأن ذلك يؤكد له انفصاله عما حوله، على حين أن استمرار التعامل معه يبقيه على صلة بالحياة المحيطة به، وقد يساعد فى شفائه.

فى هذا الفيلم صور «ألمودوفار» ممرضا يحب راقصة باليه شابة أصيبت بغيبوبة،

فتولى رعايتها بالمستشفى، وكان يأتيها كل يوم بقصص وحكايات يرويها لها، فيذهب مثلا إلى عروض الباليه ويعود ليروى لها ما شاهده وكأنها تسمعه. وينتهى الفيلم بأن تفيق الفتاة بالفعل من غيبوبتها.

يا ترى، هل أستطيع أن أفيق الأستاذ بما أرويه له؟ لقد كان يهوى كثيرا سماع القصص التى كانت تعوضه عن الحرمان من قراءة الأدب، ولم أرَ الدموع فى عينيه طوال معرفتى به إلا مرتين: الأولى حين حدثنى عن وفاة «سعد زغلول»، والأخرى حين رويت له قصة مسرحية «الجنزير» التى عُرضت لى عام ١٩٩٦، والتى يموت بطلها الشاب فى النهاية وسط طلقات النيران المتبادلة ما بين قوات الشرطة وأفراد الجماعة الإسلامية، فى الوقت الذى تصرخ فيه الأم بأعلى صوتها كالحيوان الجريح: بلدى!

وقد فوجئت حين وصلت إلى هذه النهاية بعينيه وقد اغرورقتا بالدمع، وقال لى: «اعذرنى؛ فالنهاية مؤثرة جدا!».

نعم، سأتحدث إليه كما لو كنا جلوسًا فى بيته. سأكلمه بشكل طبيعى، وفى الموضوعات التى كنت سأحدثه فيها لو كان متيقظا. لقد أمضيت السنوات أحدثه فى كل ما لم يكن يستطيع قراءته أو مشاهدته، فلماذا أتوقف اليوم؟

ملت برأسى على أذنه اليسرى وقلت بصوت عال: «**الأحلام** صدرت يا أستاذ نجيب، وهذه نسختك الأولى التى خرجت من المطبعة».

وضعت الكتاب أمام عينيه، لكنه لم يفتحهما. خلته يسألنى عن شكله كما كان يفعل كلما أحضرت له كتابا جديدا، فأخذت أصف له شكله وحجمه. ثم فتحت الكتاب وقلّبت صفحاته:

«رأيتنى فى حى العباسية أتجول فى رحاب الذكريات، وتذكرت بصفة خاصة المرحومة «ع»، فاتصلت بتليفونها ودعوتها إلى مقابلتى عند السبيل، وهناك رحبت بها بقلب مشوق، واقترحت عليها أن نقضى سهرتنا فى الفيشاوى كالزمان الأوَّلى..»

قبل أن أكمل «الحلم» تخيلته يبتسم. قلت: «على فكرة، أنت لم تَقُلْ لى قَطّ من هى «ع» هذه؟ صحيح أننى لم أسألك، لكن هناك أشياء كثيرة أشعر الآن أننى لم أسألك عنها». قلت لنفسى: «كم هى محيرة هذه الحياة! إنها لا تعطينا أبدا الوقت كى نفعل كل ما نريد». ثم قلت له: «كان يجب أن أسألك عن الاسم الكامل لـ«ع»، فقد صرتُ أعرف عنها الكثير من خلال ما كتبْتَهُ عنها دون أن تذكر اسمها. لقد لاحظت أنها تزوجت بشخص آخر فى الحلم ١٩١، وأنا واثق أنها هى صاحبة الحلم ١٤٤ الذى تقول فيه:

«نظرت فى ظلمات الماضى، فرأيت وجه حبيبتى يتألق نورا بعد أن دام غيابها خمسين سنة، فسألتها عن الرسالة التى أرسلتها لها منذ أسبوع....»

وأتصور أيضًا أنها صاحبة الحلم ١٤ الذى تقول فى بدايته:

«تريضت على الشاطئ الأخضر للنيل. الليلة ندية، والمناجاة بين القمر ومياه البحر مستمرة تشع منها الأضواء. هامت روحى حول أركان العباسية المفعمة بالياسمين والحب، ووجدت نفسى تردد السؤال الذى يراودها بين حين وآخر: لماذا لم تزرنى فى المنام ولو مرة واحدة منذ رحلت، على الأقل لأتأكد من أنها كانت حقيقة وليست وهما من أوهام المراهقة..»

توقفت عن قراءة بقية الحلم، فقد كانت نهايته حزينة حيث تظهر أخيرا الحبيبة وسط زفة موسيقية صاخبة، فيتقدم إليها ويحيطها بذراعيه:

« لكننى سمعت طقطقة شىء ينكسر، وأيقنت أن الفستان ينسدل من فراغ، وسرعان ما هوى الرأس البديع إلى الأرض، وتدحرج إلى النهر، وحملته الأمواج مثل ورد النيل تاركة إياى فى حيرة أبدية».

لم أشأ أن أحدثه عن تلك النهاية السوريالية - رغم جمالها الفنى - بسبب الحزن الذى تنطوى عليه. فضلت أن أبقى الحديث على مستوى المداعبة الخفيفة بين صديق وصديقه. قلت: «ع بقى يعنى إيه؟ أهى عايدة شداد محبوبة كمال عبد الجواد الذى

هو أنت فى «السكرية»؟ أم أنها امرأة أخرى تماما اسمها عبلة مثلاً أو علا؟ أو ربما كان لها اسم آخر غير دارج مثل عنبر أو عند؟» .

ثم قلت له : «تصور يا أستاذ نجيب أن «الحاج صبرى» الذى أمليتَ عليه الحلم ظن أن «ع» هو الاسم الفعلى لها وليس مجرد الحرف الأول من الاسم ، فكتبها بعين ثم ياء فنون : «عين» ، وقد نُشرت فى الكتاب بالفعل على أنها عين!» . خلْتُهُ يبتسم ، فقلت : «لماذا تضحك؟ هل ضحكتَ علينا بالفعل بهذا الحرف فى حينَ أن اسمها كان «عين» كما كتبه «الحاج صبرى» دون أن يعرف أنه كشف السر!» .

دخل الأطباء فجأة ، فانقطع سيل الحديث . لم يعطوه الوقت كى يرد علىّ . لو لم يدخلوا لكان قد ضحك ضحكته المجلجلة التى مضى الآن ما يزيد على أسبوعين دون أن نسمعها . سمعتنى إحدى الممرضات اللاتى كُنَّ يتقدمن موكب الأطباء وأنا أتحدث إليه ، فسألتنى غير مصدقة : «هل أفاق؟» . قلت : «أتتصورين أننى كنت أتحدث إلى نفسى؟» .

تركتُهم وخرجتُ من الغرفة . قال لى أحد الحراس : «لم نسمع له صوتا منذ عدة أيام ، إيه الحكاية يا أستاذ محمد؟» . قلت : «شدة وتزول!» . جلست وحدى فى الاستراحة . وحين خرج الأطباء سألتهم : «كيف حاله اليوم؟» . قالوا : «هناك تحسن نسبى» .

١٦

ساءلت نفسى فى الطريق إلى المستشفى : «تُرَى كيف سيكون اليوم؟ هل سأجد بعض التحسن فى حالته؟» . . إن التحسن بالنسبة لى ليس أن تنخفض نسبة الحموضة فى الدم ، أو تعود الحرارة إلى طبيعتها ، ولا حتى أن يتوقف النزيف ، أو يُرفع جهاز التنفس الصناعى . التحسن عندى له معيار واحد فقط ، هو أن يعود إليه الوعى من جديد فيتحدث إلينا كما نتحدث إليه . بذلك يكون قد قرر أن يعود إلينا

من حيث ذهب منذ ما يربو الآن على العشرة أيام. إذا عاد فالحرارة ستنخفض من تلقاء نفسها، والنزيف سيتوقف، وسيعود يتنفس بإرادته وليس بشكل آلى لا دخل له فيه.

كان «غاندى» هو الذى قال: «كل ليلة حين أنام أموت، وفى الصباح حين أستيقظ أولد من جديد». إن ما كنت أنتظره الآن هو أن أجده قد استيقظ من ذلك النوم الطويل وولد من جديد. أريد أن يكون قد عاد إليه وعيه، فقد يتيقظ لكن دون أن يعود إليه وعيه، فيرانا ويتحدث إلينا لكنه قد لا يعرفنا، وهذا شىء كنت أعرف أنه لم يكن يريده. لقد روى لى ذات مرة أنه فى زيارته الأخيرة لـ «توفيق الحكيم» بالمستشفى سأله «الحكيم» حين دخل عليه: «إنت مين؟!». . وكان تعليق «محفوظ» لى - والذى ما زلت أذكره - هو: «ربنا ما يحكم على حد!»، ربما كان علينا إذن أن نحمد الله على أنه ظل محتفظًا بذاكرته حتى اللحظة الأخيرة قبل أن يذهب فى هذا النوم الذى طال مداه بأكثر مما كنا نتوقع لسبب لا نعرفه ولا نملك حياله شيئا. كل ما نستطيعه هو توجيه السؤال وليس الإتيان بالجواب. كل ما نملك هو أن نسأل ما سأله لى بالأمس حارسه الخاص: «إيه الحكاية يا أستاذ محمد؟». نعم، إيه الحكاية؟ من يستطيع أن يقول لنا إيه الحكاية؟ ربما لا يملك الجواب إلا هو نفسه، فهو أبو الحكايات، أو «الحَكَّاء الأكبر» كما أسماه الكاتب الفرنسى «روبير سوليه»، وتلك هى الحكاية الكبرى التى لا نعرف لها حلاً!. . عليك أنت أيها «الحَكَّاء الأكبر» أن تأتى لنا بالحل كما فعلتَ مع كل حكاياتك السابقة، حكايات حارتنا الكبرى التى وجدَتْ فيها الإنسانية كلها أكثر المبادئ نبلا وأعظم الأفكار ثراء. أكثر من ثلاثين رواية طويلة، وأكثر من ٣٥٠ قصة، وعدة مسرحيات، لكل منها حبكة تعقدت فيها الأحداث، ثم أتيتَ لنا بالحل فى النهاية. تلك هى الحبكة الكبرى، فأين الحل؟ هل قدمْتَهُ لنا لكنا لم ندركه؟

دخلتُ الغرفة متعجلاً، ولأول مرة لم أُحَىِّ أفراد الحرس الواقفين على بابها وكأنى أخاف أن تفوتنى كلمة سيتفوه بها أو حركة سيأتى بها.

وجدته كما تركته بالأمس. لا أتصور حتى أنه تحرك على الفراش. كان ما زال

نائمًا على ظهره والأنبوب الكبير في حلقه، وخراطيم المحاليل واصلة إلى عروق رقبته، وخراطيم أخرى في يديه، وخرطوم المعدة مُتَدَلٍّ من بطنه. لا صوت في الغرفة غير صوت دقة رتيبة تأتى من الأجهزة المعلقة فوق سريره. كان وجهه قد ازداد شحوبًا، وجهاز التنفس الصناعى كان يضغط على الجانب الأيمن من فمه.

مع ذلك قلت: «صباح الخير يا أستاذ نجيب!». لكنى لم أشعر أنه سمعنى كما كنت أشعر فى المرات السابقة. لم أجد فى نفسى رغبة كى أتحدث إليه ثانية، فهو لم يكن هنا فى الغرفة. هذا هو جسده، أو ما بقى من جسده بعد المرض الذى دام الآن شهرًا ونصف الشهر، خمسةً وأربعين يومًا بالتمام والكمال، فقد خلالها بعض وزنه والكثير من لونه، كما فقد بهجته ووعيه. دخل المستشفى يوم ١٦ يوليو، وها نحن الآن وصلنا إلى يوم ٢٩ أغسطس وقد ذهب عنا إلى حيث لم نَعُدْ قادرين على التواصل معه، لا بالحديث ولا بالحركة، ولا حتى بالشعور، فاليوم كان ينتابنى ذلك الإحساس الرهيب بأنه لم يعد هناك تواصل بيننا وبينه كأنه قد رحل!

لقد كانت ولادته متعسرة فى ذلك اليوم الحادى عشر من آخر شهر فى سنة ١٩١١. استُدعى أحد أكبر أطباء التوليد فى ذلك الوقت - وهو الدكتور «نجيب محفوظ باشا» - فى وقت كان يُكْتَفَى بالداية التى تأتى إلى البيت وخلال دقائق تكون الولادة قد تمت. ولادته هو استغرقت وقتًا طويلاً، وحين تمت فى النهاية قرر الوالدان إطلاق اسم الطبيب القبطى الكبير على المولود عرفانا بالجميل.

ربِّ لا تجعل رحيله متعسرًا مثل ولادته. دعه يخرج بسلام كما كان يتمنى ودون ألم!

جلستُ إلى جوار سريره ونظرت إلى كتاب «الأحلام» الذى تركته أمس إلى جانبه أملاً فى أن يفيق أثناء غيابى فيطلبه كما طلب النظارة وسماعة الأذن. لكن ها هو مكانه كما هو، أنا الذى أتصفحه:

«ناداني الشوق لرؤية الأحباب، فتوجهت صوب الحي العتيق، وكالعادة قطعت الطريق مشيًا على الأقدام حتى بدا لي البيت القديم وذكرياته، ولم أضيع وقتًا، فأخذت في الصعود نحو الطابق الثالث والأخير، ولكن دهمني إرهاق غير يسير عند منتصف السلم جعلني أفكر في تأجيل الرحلة لولا أن طبعي يأبى التراجع، وبجهد جهيد واصلت الصعود حتى بلغت البَسْطَة الثالثة، ومن موقفي الجديد لاح لي باب الشقة غارقًا في الصمت والسكون، فعلمت أنه لم يَبْقَ من الصعود سوى عشر درجات هن ختام السلم، لكنى لم أر درجة واحدة، ووجدت مكانها هوة عميقة، فخفق قلبي خوفًا على آل البيت، ومع أن الوصول بات متعذرًا إلا أني لم ألتفت إلى الوراء، ولم أفكر في التراجع، بل ولم أفقد الأمل، وجعلت ألصق بصري بالباب الغارق في الصمت والسكون وأنا أنادي وأنادي وأنادي من الأعماق».

دخل عدد من الممرضين لا أعرف ماذا فعلوا، كنت مأخوذا بندائه الذى انتظرت لَعَلِّي أسمعه. لاحظت أنهم لأول مرة لم يكلموه كما كانوا يفعلون فى الزيارات السابقة، ولا حتى حديث الأطفال الساذج الذى لم يكن يروق لـ «هدى». هل داخَلَهم نفس الشعور الذى كان عندى، بأنه لم يعد معنا؟ أهى النهاية؟ لا، لا يمكن أن تكون هذه هى النهاية.

يا رب! إن رحمتك واسعة، وقدرتك فائقة. أبْقِه بيننا لأننا ليس لدينا مثله أحد. لقد أبقيتَهُ ما يقرب من ٩٥ عامًا. لكنا نطلب المَزِيد، فلسنا نعرف كيف نعوضه. اتركه لنا عامًا آخر أو اثنين لنزهو به بين الأمم. اتركه لنا بضعة أشهر، حتى حلول عيد ميلاده الـ ٩٥. أعطنا الفرصة أن نُدخل البهجة إلى نفسه ونحن نقول له فى ذلك اليوم: «عقبال مائة سنة!». اتركه لنا شهرًا واحدًا، وسنجتهد خلاله كى نفعل له ما تفعله أمم الأرض كلها لعظمائها، والذى لا نفعله نحن إلا حين لا يستطيعون رؤيته!

١٧

فى مساء نفس اليوم تلقيت مكالمة تليفونية قال لى فيها محدثى : «البقية فى حياتك !» .

سقطت السماعة من يدى ، فالتقطتُها بسرعة ، وقلت : «أنا قادم فورا!» . قال : «أرجوك ألا تفعل . انتظر ، فهم سيبلغونك رسميا» . قلت : «لن أنتظر شيئا» . قال : «أرجوك وإلا ستعرّضنى للمساءلة . سيبلغونك رسميا» .

كانت الساعة نحو العاشرة مساء ، ولم يكن أحد معه بالمستشفى . كانت السيدة حرمه قد عادت إلى المنزل فى نحو الثامنة والنصف مساء . بعد ذلك بقليل شهدت غرفته حركة غير عادية ، وبدا أن هناك حالة طوارئ داخل الغرفة . عدد كبير من الأطباء جاءوا مسرعين ، وتم إحضار بعض المعدات الطبية . ثم خرج بعض الأطباء ودخل آخرون ، واستمر هذا الوضع نحو نصف ساعة ، ثم هدأت الأوضاع ومُنع بعد ذلك دخول الغرفة ، وحين جاء وقت انتهاء وردية طاقم الحرس الواقف على بابه ووصل الطاقم التالى ، لم يُسمح للطاقم القديم بمغادرة المستشفى .

سألت محدثى : «هل تم إبلاغ أسرته؟» . قال : «سيتم إبلاغهم رسميا» .

وضعتُ سماعة التليفون ، وانتظرت وأنا مقيد بالوعد الذى قطعته بألا أتصرف بما يوحى بأن الخبر قد وصلنى .

كانت دقائق الانتظار تلك من أقسى الأوقات التى مرت علىّ طوال الفترة التى قضاها الأستاذ بالمستشفى .

مضت ساعة كاملة ولم أبلَّغ رسميا بأى شىء . فكرت فى الاتصال بمنزل الأستاذ ، لكن الوقت كان متأخرا ، كما أننى لم أجد ما يستدعى أن أزعج الأسرة بأخبار لم أتأكد بنفسى من صحتها رغم ثقتى الكاملة فيمن نقلها .

اتصلت بالمستشفى ، لكنى لأول مرة لم أجد طبيبا واحدا يرد علىّ. لم يكن أحد منهم حيث تليفونه . أين ذهبوا جميعا؟ ألا يزالون فى غرفته ، أم أنهم يتهربون منى؟

تذكرت حلما لم يُنشر من «أحلام فترة النقاهة» . ربما كان آخر حلم أملاه ، فقد أعطانى إياه قبل مرضه بأسبوع واحد . قرأته مرة واحدة حين أعطاه لى ، ثم طويته على ألا أعود إليه ثانية . الآن أخذ يلح علىّ ، فقرأته وأنا جالس أنتظر إلى جوار التليفون :

«رأيتنى سائرا فى الطريق فى الهزيع الأخير من الليل، فترامى إلى سمعى صوت جميل وهو يغنى: زورونى كل سنة مرة! التفت، فرأيت شخصا ملتفا فى ملاءة تغطيه من الرأس إلى القدمين، فنظرت إليه باستطلاع شديد. رفع الملاءة عن نصفه الأعلى فإذا هو هيكل عظمى، فتراجعت مذعورا، ورجعت وأنا أتلفت والصوت الجميل يطاردنى وهو يغنى: زورونى كل سنة مرة!».

سأذهب إلى المستشفى وليحدث ما يحدث . لن أتركه يُمضى الليل وحده هناك ، ربما يكون ما زال على قيد الحياة ، أو فى النزع الأخير . أن يجد الإنسان نفسه وحيدا ساعة الرحيل فذلك لابد رهيب . لكن ذهابى سيثير حتما الشكوك ، فهم فى المستشفى لم يعتادوا زيارتى له فى منتصف الليل . قد يسبب ذلك أذى لمن نقل إلىّ مشكورا الخبر .

لم أنَمْ فى تلك الليلة ، كلما غفوت تراءى لى أن الأستاذ قد تحرر من أسْر المرض وعاد عَفيّا يتحرك ويتكلم كما كان . . وبدا الواقع ، كلما صحوت ، وكأنه كابوس غير حقيَقى ، والحلم الذى كنت أعود إليه هو الحقيقة ، فقد اختلط الشك باليقين ، واليقظة بالنوم ، والواقع بالخيال ، فى دوامة استمرت طوال الليل!

١٨

فى التاسعة صباحا رن جرس تليفونى المحمول، وكان على الطرف الآخر الدكتور «زكريا عزمى» رئيس ديوان رئيس الجمهورية.

قال: «البقية فى حياتك!».

قلت: «حياتك الباقية».

قال: «إن له جنازة عسكرية، ونريد أن نقيمها له غدا بعد صلاة الظهر من مسجد آل رشدان بمدينة نصر، فما رأيك؟».

قلت: «سأبلغ الأسرة وأرد عليك».

ولست أعرف إن كان الدكتور «زكريا» قد تعجب من ردودى التى لم تَنمّ عن أى قدر من الدهشة من تلقى مثل هذا الخبر. أو أنه ربما شك فى أننى كنت على علم مسبق بالخبر؛ فبعد أن انتهى من كلامه سألنى فجأة: «هوَّ اتوفَّى إمتَى؟».

قلت دون تفكير: «إمبارح بالليل».

قال: «الساعة كام».

قلت: «قبل العاشرة».

لم يعلق.

وضعتُ السماعة واتصلت على الفور بالسيدة «عطية الله»، كانت ما زالت فى البيت. سألتُها عن الأخبار لأعرف إن كانت قد أبلغت بالخبر. قالت إن كل شىء على ما يرام. أدركت أنها لم تبلغ بعد. قلت: «أنا ذاهب إلى المستشفى الآن». قالت: «أهناك شىء؟». قلت: «لقد أبلغونى أن الأستاذ تَعبان شويه».

كان الأستاذ قد مر بأزمة فى السابعة من مساء اليوم السابق. كانت أسرته معه

بالغرفة. طلب منهن الأطباء الخروج إلى الاستراحة، وتوافَد عدد من الأطباء إلى غرفته. بعد فترة أبلغوهن بأن كل شىء على ما يرام، فدخلت السيدة زوجته وابنتاه واطمأنن على حالته. وغادرت «هدى» و«فاتن» المستشفى، ثم تبعتهما السيدة «عطية الله» فى حوالى الثامنة والنصف مساء.

ربما تصورت السيدة «عطية الله» حين قلتُ لها إنه «تعبان شويه» أنها أزمة كتلك التى مرت به أمس. قلت لها: «متى ستذهبين إلى المستشفى؟». قالت: «كنت أستعد للذهاب الآن». قلت: «إذن نلتقى هناك».

ها هو الخبر قد تأكد الآن وأنا أقوم بإبلاغه لأسرته. أهذا ما كنت أنتظره ولم أنَمْ الليل حتى يتم إبلاغى به رسميا؟ لقد رحل إذن «نجيب محفوظ» ولن أراه ثانية. لن أسمع صوته المرحب بى كلما زرته فى البيت، ولن يقبّلنى فى كتفىَّ الاثنتيْن بعد الآن!

منذ بضعة أيام قالت لى «فاتن» فى المستشفى إنه يوم السبت الأخير. قبل غيابه عن الوعى قال للأطباء إنه ينتظر قدوم ضيف، لكنهم لم يفسروا كلامه جيدا. حين حضرت فاتن إلى المستشفى سألوها من الذى كان يحضر إليه كل يوم سبت؟

إنه لن يسأل عنى بعد اليوم، ولن ينتظرنى يوم السبت. لن أسمع صوته ثانية، ولن أسمع ضحكته المجلجلة.

لقد رحل إذن إلى حيث أحباؤه الذين اشتاق إليهم، وكان يناديهم فى مماتهم ربما ليخبرهم أن ينتظروه، فمشواره الآن قد اكتمل:

«إنه مشوار مرهق، وعند نهايته وجدت بوابة مغلقة، فاستجمعت قواى وجعلت أرفعها حتى استجابت، فرأيت وراءها بحيرة تنطلق منها صواريخ، وكلما بلغ صاروخ الفضاء فى الفجر باعثا من الظلمة وجها عزيزا محبوبا، امتلأ الفضاء بالأحبة.. ومع ذلك فما زلت أنتظر سطوع الوجه الذى علمنى العشق وألهمنى الخلود».

وصلتُ إلى المستشفى، فاتجهت على الفور إلى غرفته. كانت الملاءة تغطى السرير كله، لكن السرير بدا لى خاليا. أين ذهبوا به؟ رفعت الملاءة، فوجدت وجهه أمامى. كانت تكسوه مسحة من السكينة. لم يرحل وسط نوبة ألم، لكنه كان قد فقد لونه تماما. كان فمه مفتوحا كما كان طوال الأسبوع الأخير بفعل الأنبوب الغليظ الخاص بجهاز التنفس الصناعى. لماذا لم يغلقوا فمه بعد أن نزعوا ذلك الأنبوب اللعين؟

كان الوجه هادئا بلا تعبير، تماما كما كان منذ قال إنه يريد أن «يروَّح» وذهب.. غاب عن الوعى وذهب.

تموجت معالم وجهه وسط الدموع التى اغرورقت بها عيناى.

للشاعر الأمريكى الكبير «هنرى وادزورث لونجفيلو» قصيدة يقول فيها:

وضع الزمان يده على قلبى

ليس ليضربه

لكن مثلما يضع عازف القيثارة

كفه برفق على الأوتار

ليُسكت ذبذباتها.

إذن فقد سكتت قيثارة الأدب العربى التى لن يعود أحد يسمع لها صوتا بعد الآن. كفت ذبذباتها.

لكن متى سكتت؟ هل اليوم، أم منذ طلب صاحبها الرحيل قبل نحو أسبوعين؟

لقد ظللنا نصارع رغبته فى الرحيل طوال الوقت. إذا توقف عن الأكل وضعنا فى معدته خرطوما وحَقَنَّاه بالغذاء رغما عنه. إذا رفضَتْ أمعاؤه الغذاء ونزَف القولون أدخلنا منظارا داخل جسده وقمنا بكَىّ موضع النزيف. إذا توقف عن التنفس أدخلنا الهواء بالقوة إلى رئتيه بجهاز التنفس الصناعى. إذا توقف القلب أحدثنا له صدمة كهربائية ليعود ثانية إلى الخفقان.

هل كانت قراراتنا صائبة؟ لقد بذل معه الطب كل ما توصل إليه من حيل لرد القضاء، فهل كان ذلك أخلاقيا؟ ألم يكن أجدادنا تجيئهم لحظة الموت فيموتون في سلام؟

لماذا نجح التقدم الذى حققه الطب فى أن يمتد بلحظة الموت الأليمة أياما، وفى بعض الأحيان شهورا أو سنين، فيستمر الجسد على قيد الحياة بعد أن تكون الروح قد رضيت بالرحيل وارتضته؟ إن لحظة الموت لحظة رهيبة. ربما كان علينا فقط أن نقف أمامها خاشعين.

لدى الرهبان البوذيين فى بلاد التبت طقوس معروفة تساعد من يأتيه الموت على الرحيل حتى لا يصارع تلك اللحظة فيطول عذابه.

دخلت «فاتن»، فغطيتُ وجهه بسرعة ومسحتُ الدمع الذى كان قد انساب من مُقْلَتَيَّ.

قالت: «أريد أن أراه».

قلت: «لا داعى. اجعلى الوجه البشوش الذى تعرفينه هو الذى يبقى فى ذاكرتك. إن هذا الوجه هو وجه الموت وليس وجهه».

ثم دخلت «هدى» وفى يدها مصحف. جلسَتْ فى هدوء على المقعد المجاور للسرير وأخذت تقرأ فى صمت، فانضمت إليها «فاتن».

قالت لى السيدة «عطية الله» إنها لاحظت هى أيضا حين دخلت الغرفة أن السرير بدا خاليا، حتى إنها تصورت أنهم نقلوه من الغرفة. هل الروح هى التى تعطى الجسد حجمه والحيز الذى يشغله، وحين تخرج الروح يصبح الجسم كالبالون الأجوف حين يخرج منه الهواء؟ أمْ أن الجسد ما هو إلا الرداء الذى ترتديه الروح، فإذا خلعَتْهُ كان بنفس مستوى السرير الذى ألقى عليه؟

حاولتُ أن أحول نظرى عن جسده. لم أستطع. نظرتُ إلى «هدى» و«فاتن» ثم عدت أنظر إليه ثانية. هذا الجسد الهزيل الذى أمامى هو جسد الأدب العربى وقد

رحلت عنه روح «نجيب محفوظ»، ففقد قوامه وحجمه وحيزه، وصار مسطحا كالسرير لا ترتفع له قامة.

١٩

سألت الأطباء: «متى توفى الأستاذ؟».

قالوا: «صباح اليوم». قلت: «وماذا حدث ليلة أمس؟». قالوا: «لقد توقف قلبه، لكننا تمكنا من إسعافه وعاد قلبه ينبض ثانية». قلت: «متى كان ذلك؟». قالوا: «فى نحو السابعة مساء، وكان أفراد أسرته موجودين بالمستشفى». قلت: «لكننى أسأل عما حدث فى الليل». قالوا: «لقد كانت ليلة عصيبة بذلنا فيها كل ما نستطيعه».

قال أحدهم: «كنا قد نزعنا عنه جهاز التنفس الصناعى، وانتظرنا، فإذا مرت ست ساعات دون أن يحتاج للجهاز فهذا يعنى أنه لن يعود إليه ثانية، لكنه «تعب قوى» و..».

قلت: «فى أى ساعة توفى بالضبط؟».

قالوا: «بعد الثامنة بقليل، فى نحو الثامنة وعشر دقائق، فقد توقف قلبه ثانية، لكن أجهزتنا لم تتمكن تلك المرة من إعادته للحياة».

لم أعلق.

قال الأطباء: «الآن علينا أن ننقل الجثمان إلى الثلاجة».

إن مواجهة الموت على ما يبدو لا تكون إلا للحظة واحدة فقط ينظر فيها الإنسان إلى المتوفَّى ثم سرعان ما تطغى على الموقف النواحى الإجرائية، فينتقل الاهتمام من تلك اللحظة المهيبة إلى ترتيبات الجنازة والدفن والنعى والعزاء فى سباق لاهث لا ينتهى إلا بعد بضعة أيام حين تنتهى هذه المراسم ويجد أقرباء المتوفى أنفسهم لأول

مرة أمام الحقيقة المقيمة التى لا فكاك منها بأن حبيبهم قد مات وأنهم لن يلقوه ثانيةً بقية العمر!

ذهبتُ أبلغ السيدة «عطية الله» وابنتيه بأن رئاسة الجمهورية أبلغتنى بأنه ستكون له جنازة من مسجد آل رشدان فى مدينة نصر. قالت زوجته: «كان يود أن يصلَّى عليه فى الحسين». قلت بلا تردد: «إذن سنصلى عليه فى الحسين أولاً»، واتصلتُ بالدكتور «زكريا عزمى» وأخبرته بأننا سنصلى عليه أولاً فى جامع الحسين حسب رغبته، ثم نتوجه بعد ذلك إلى مسجد آل رشدان للجنازة العسكرية.

حضر اللواء «معتصم عبد المعطى» - مساعد وزير الداخلية للشئون الطبية - ومعه مدير المستشفى وطاقم الأطباء جميعًا وانتقلنا إلى الاستراحة الكبيرة، حيث عرضوا جميعًا تقديم كافة الخدمات الخاصة بالجنازة والدفن. كانت هذه الاستراحة بمثابة غرفة العمليات لكافة الترتيبات، فما هى إلا دقائق وكان بالاستراحة جميع أصدقاء الأستاذ: «جمال الغيطانى» و«توفيق صالح» وزوجته التى لازمت السيدة «عطية الله» من تلك اللحظة وحتى انتهاء مراسم الدفن فى اليوم التالى. وكان هناك «يوسف القعيد» والمهندس «إبراهيم المعلم». كان هناك أيضا «عمرو توفيق عبد العزيز» ابن شقيق الفقيد.

تحدثتُ مع رجال الشرطة فى ترتيبات الجنازة العسكرية والإجراءات اللازمة لخروج الجثمان من المستشفى فى الصباح فى وقت يسمح بالتوجه أولاً إلى الحى القديم الذى وُلد به الأديب الراحل لتقام الصلاة على جثمانه فى جامع الحسين الشريف ثم نتوجه بعد ذلك إلى مسجد القوات المسلحة بمدينة نصر قبل موعد صلاة الظهر بوقت كاف.

ثم انتقلتُ مع اللواء «معتصم عبد المعطى» إلى مكتبه بالمستشفى حيث أجرى الاتصالات اللازمة لتأمين هذا البرنامج. اتصل بى مدير مكتب وزير الثقافة يخبرنى بقرار الوزير بأن تتكفل الوزارة بجميع ترتيبات الجنازة. قلت له إننى سأنقل ذلك لأسرة الفقيد، لكن الجنازة ستكون عسكرية، وستتولاها رئاسة الجمهورية، أما سرادق العزاء فسيتولاه اتحاد الكتاب.

كان النهار قد انتصف، وجاء الدكتور «حسام موافى» يقول إن هذا هو موعد المؤتمر الصحفى، وطلب منى أن أصحبه إلى قاعة المؤتمرات لإعلان خبر الوفاة على أجهزة الإعلام.

كانت القاعة تضج بالحضور من الصحفيين وكاميرات التليفزيون والمراسلين الأجانب. وفوق المنصة التى كان الدكتور «موافى» قد طلب منى منذ أيام قريبة أن أصعد إليها لأطمئن الحضور على حالة الأستاذ، وقفت الآن أنعيه لهم.

قلت: «باسم اتحاد كتاب مصر أنعى للشعب المصرى وللأمة العربية وللإنسانية جمعاء الرئيس الفخرى للاتحاد الذى هو عَلَمٌ من أعلام هذا الوطن، ورفع اسمه عاليًا كالراية الخفاقة بين سائر أمم الأرض.

لقد رحل أديبنا الأكبر «نجيب محفوظ» بعد رحلة مع المرض استمرت شهراً ونصف الشهر عن عمر يناهز الـ ٩٥ عاما.

غدا ستقام الصلاة على جثمانه الطاهر بجامع الحسين حسب رغبته، ثم يخرج فى جنازة عسكرية من مسجد آل رشدان بمدينة نصر حيث سيوضع جثمانه متدثراً بعلم مصر على عربة مدفع تجرها الخيول وتتقدمها الموسيقات العسكرية.

بذلك يكون فصل رائع من تاريخ الأدب العربى قد وصل إلى نهايته بعد ما يقرب من قرن كامل من العطاء الذى أثرى حياتنا وملأها بهجة، وسنظل ندين له بجميل لن نستطيع رده ما حيينا».

وبدأ سيل الأسئلة التى تقدمها سؤال:

«فى أى ساعة توفى؟». قلت: «الدكتور حسام موافى سيتولى الرد على كافة أسئلتكم الطبية حول وقت الوفاة وأسبابها»، ونزلت بسرعة من على المنصة.

حين عدت إلى غرفته كان الجثمان قد نُقل منها. كانت الغرفة الآن خالية!

٢٠

اتصل بى مسئول وحدة المفرقعات بأمن رئاسة الجمهورية بعد ظهر نفس اليوم وطلب منى أن أقابله فى المساء بالمستشفى لإتمام إجراءات تسليم الجثمان الذى كان سيتم التحفظ عليه إلى حين انتهاء الجنازة ظُهْرَ اليوم التالى. وجدت فى ذلك اهتماما أمنيا كبيرا بسلامة أديبنا الأكبر لم يَحْظَ به حال حياته، خاصة قبل أكتوبر ١٩٩٤ حين تمكن ذلك الشاب المضلَّل من التقدم إليه بسكين فى الشارع، وأمام المارة، وطعنه فى رقبته تلك الطعنة الغادرة التى أفقدته بعد ذلك القدرة على الكتابة.

شكرتُ المسئول وقلت له إننى سأكون فى المساء فى منزل الفقيد الملاصق للمستشفى، وإننى أستطيع أن أقابله فى حوالى الثامنة فى مكتب مدير المستشفى.

كان سبب زيارتى لمنزل الأستاذ فى تلك الليلة هو تسليم الأوسمة التى حصل عليها الفقيد لمندوب المراسم العسكرية حتى تُحمل أمام النعش كما تقضى مراسم الجنازة العسكرية. ولما كان الأستاذ قد حصل على عدد كبير من الأوسمة والجوائز فقد كان علىَّ أن أختار مع أسرته ما هو أكثر أهمية من الباقى، وكانت تلك عملية عسيرة لأن بعض هذه الأوسمة فُقدت على مر السنين، وكذلك «ميدالية» نوبل الذهبية على سبيل المثال - والتى تحمل وجه «ألفريد نوبل» - لم نعثر عليها. . وقد خرجت جنازة كاتب نوبل العالمى دون ميدالية جائزة نوبل! أما قلادة النيل التى كانت هى سبب استحقاقه الجنازة العسكرية فقد وجدناها، لكن الوسام المعلق فى القلادة لم يكن موجودا، وخرجت القلادة وحدها فى الجنازة دون الوسام! أما الأوسمة التى تم تسليمها للمراسم العسكرية فكانت وسام الفنون والآداب الفرنسى الذى منحه له الرئيس السابق «فرانسوا ميتران»، وأوسمة وجوائز متعددة من دول أخرى، مثل جائزة «كافافى» اليونانية، ووسام آداب أمريكا اللاتينية، بالإضافة للأوسمة والجوائز المصرية مثل جائزة «مبارك»، وجائزة الدولة التقديرية، ووسام الاستحقاق.

وقد سعدتُ حين اتصلت بى المراسم العسكرية طالبة الحصول على هذه الأوسمة فى الليلة السابقة على الجنازة، ذلك أن وقت وفاة الأستاذ «توفيق الحكيم» عام ١٩٨٧ فوجئنا بمنظِّمى الجنازة يسألون فى جامع «عمر مكرم» قبل أن تخرج الجنازة مباشرة عن الأوسمة، فقال لهم أفراد أسرته إنها فى البيت، وأن أحدا لم يَقُلْ لهم أن يحضروها معهم! وهكذا خرجت جنازة «توفيق الحكيم» العسكرية دون أن تتقدمها أوسمته التى عادةً ما يحملها الضباط على وسادات مخملية أمام النعش!

أما اختفاء بعض أوسمة الأستاذ «نجيب محفوظ» فكان سببه أن بيته الذى لم يكن يدخله أحد قبل فوزه بجائزة نوبل، وكان بعض أصدقائه لا يعرفون عنوانه، قد أصبح منذ اليوم الأول لإعلان فوزه بنوبل مكانا عاما فى نظر البعض، من حق كل من يريد أن يذهب إليه، و فى بعض الأحيان دون استئذان أو حتى إخطار. أذكر فى يوم إعلان فوزه بالجائزة أن كان الأستاذ على موعده الأسبوعى فى كازينو قصر النيل مع مجموعة «الحرافيش». ولما كان لا يحب أن يغير من عاداته تحت أى ظرف من الظروف، فما إن دقت الساعة السادسة مساء حتى خرج من بيته متوجها إلى كازينو قصر النيل للقاء «الحرافيش»، ولم تكن أسرة الأستاذ قد تمرست على عدم الرد على كل من يطرق الباب. كان بعض المواطنين المصريين والعرب كثيرا ما يجيئون إلى المنزل طالبين التقاط صورهم مع الأستاذ، وكانت السيدة زوجته تفتح لهم الباب، وقد تطلب منهم أن يتفضلوا بالجلوس وتجىء إليهم بالمشروبات إلى أن يجىء الأستاذ وهو فى طريقه للخروج، فيلتقطون الصور التى يريدونها، أو يطلبون توقيعه أو إهداءه على أحد الكتب.

وهذا هو ما حدث يوم نوبل، لكن بشكل لم يسبق له مثيل، حيث امتلأ البيت بعشرات من الناس الذين لا يعرفهم أحد. كان من بينهم مواطنون عاديون، وكان من بينهم أيضا صحفيون ومصورون. تذكر السيدة «عطية الله» أن أحد المصورين استقر فوق سقف المكتبة كى يلتقط صورا للجموع التى احتشدت داخل البيت، والذين لم يكن من الممكن أن يصورهم وهو واقف وسطهم. بعد فترة صار من

الصعب إغلاق باب المنزل، فالجموع امتدت من غرف النوم فى الداخل إلى الشارع أمام مدخل العمارة فى الخارج، على حين كان الأستاذ فى كازينو قصر النيل يستقبل، هو و«الحرافيش»، أعدادا مماثلة من المواطنين.

فى ذلك اليوم اختفت أوراق كثيرة من المنزل، بعضها مهم مثل قسيمة زواج الأستاذ، ومثل شهادة ميلاد السيدة «عطية الله»، وغيرهما.

وقد كان مثل هذا الموقف يتكرر فى بعض المناسبات، مثل عيد ميلاد الأستاذ، أو خروجه من المستشفى فى المرتين السابقتين. فى كل مرة كانت أشياء تختفى من المنزل. بعضها كانت الأسرة تفاجأ بصوره منشورة بعد ذلك فى الصحف. كان هذا من بين الأسباب التى دعت السيدة «عطية الله» إلى أن تفضّل أن يُمضى الأستاذ فترة النقاهة بعد العملية فى المستشفى لتنظيم عمليات الزيارة بما لا يقلق راحته.

توقفنا طويلا فى ذلك المساء أمام وسام لم نتبين هويته، إلى أن تذكرنا أنه وسام الفنون والآداب الإسبانى الذى منحه له رئيس الوزراء السابق «خوسيه ماريا أثنار» عام ٢٠٠١.

فى ربيع ذلك العام، اتصل بى السفير الإسبانى يقول إن الحكومة الإسبانية قررت منح أديب مصر العالمى «نجيب محفوظ» أعلى وسام للفنون والآداب فى إسبانيا. وفى الأحوال العادية فإن السفير الإسبانى يقوم بتسليمه، لكن رئيس الوزراء طلب إرجاء تسليم الوسام لمحفوظ، حيث كان سيقوم بزيارة رسمية لمصر فى صيف ذلك العام، وهو يود أن يسلم «نجيب محفوظ» الوسام بنفسه على غير العادة.

تذكرتُ زيارة «أثنار» لمنزل الأستاذ. كانت معه زوجته «آنا بوتيللا دى أثنار». مكَثَا ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة يقولان لمحفوظ إنهما من المعجبين بأدبه، وإنهما قَرَءَا جميع أعماله التى تُرجمت إلى الإسبانية.

انتهيتُ مع «هدى» و«فاتن» من تحديد الأوسمة التى اخترناها، ثم سلمناها

لمندوب المراسم. كان عددها - خلافا لما استبعدناه - أحد عشر وساما، ثم استأذنتُ لموعدى مع مندوب أمن الرئاسة فى مكتب مدير المستشفى.

٢١

كان الرجل مهذبا، وكان يصاحبه زميل له، لكنه كان وحده الذى يتحدث. قال لى إنه لم يشأ تسلم الجثمان فى غير وجودى، فسألته عمّا يقصد بتسلم الجثمان؟ قال: «سنؤمّنه، ثم نضع عليه حراسة حيث هو فى الثلاجة حتى الصباح حين تتم عملية الغسل والتكفين قبل الخروج إلى الجنازة. طوال ذلك الوقت لن نسمح بالاقتراب منه». قال الرجل معتذرا: «إنها إجراءات أمنية لا نستطيع التهاون فيها». قلت: «إن الإجراءات السابقة على خروج الجنازة مثل الغسل والكفن وسيارة الموتى تستلزم اقتراب القائمين بها من الجثمان؟». قال: «سنؤمّنها نحن بالكامل إلى أن نسلمكم الجثمان بعد الجنازة». قلت: «ألن تصحبوا الجثمان إلى المدفن؟». قال: «إن مهمتنا تنتهى مع انتهاء الجنازة العسكرية». هنا تدخل على الفور مدير المستشفى قائلا إن المستشفى على استعداد لأن يتولى نقل الجثمان بعد ذلك إلى المدفن.

ثم سألنى مندوب أمن الرئاسة: «من الذى سيحضر الغسل؟».

قلت على الفور: «أنا». فأخذ الرجل يتلمس كلماته بحذر وهو يقول معتذرا مرة أخرى: «سيادتك تعلم بالطبع أن العمل عمل، وأن هناك إجراءات أمنية يجب أن تتم فى جميع الأماكن التى يُنتظر أن يوجد فيها رئيس الجمهورية». قلت: «هذا أمر مفروغ منه، ولستَ فى حاجة إلى أن تعتذر عنه. فتشجع الرجل وقال على الفور: «بما أنك ستدخل على الجثمان وقت الغسل وبعد أن نكون قد أمّنّاه، فقد تقتضى الإجراءات أن نقوم بتفتيشك»، ثم أضاف: «إنه إجراء روتينى ليس أكثر».

قلت : «أما التفتيش فقد اعتدنا عليه فى كل مكان . أصبحنا نخلع أحذيتنا وبعض ملابسنا أيضا فى مختلف مطارات العالم . وأما بالنسبة للجثمان فهو الآن فى حراسة المستشفى ، وتلك ستكون عملية تسليم وتسلم فيما بينكما ، وأنا مستعد لأن أحضرها كما طلبتم ، لكن كل ما أرجوه هو أن نحافظ على حرمة الموت ، وعلى الاحترام الواجب تجاه جثمان المتوفى» .

قال المندوب : «لا تقلق» .

انتهى الحديث عند هذا الحد . مضت لحظات صمت قطعها مندوب وحدة المفرقعات بأمن الرئاسة بقوله : «لا داعى لأن نعطلك أكثر من ذلك» . قلت : «ألم تطلبونى لحضور تسلمكم الجثمان؟» . قال : «إننا لن نفعل أكثر من أن نضع حراسة تابعة لنا على باب الثلاجة» . قلت : «أهذا كل ما فى الأمر ؟ » .

قال الرجل وردد وراءه زميله الذى لم يتحدث طوال الجلسة : «هذا كل ما فى الأمر» .

مضت لحظات صمت أخرى ، قطعها الرجل قائلاً : «هنا يكون قد انتهى ما يخص سيادتك فى الموضوع . الباقى سيكون بيننا وبين المستشفى» . فاستأذنتُ وغادرت المستشفى إلى الشارع لتصفعنى لفحة هواء ساخن فى ذلك المساء المكفهر من شهر أغسطس .

٢٢

وصلتُ إلى المستشفى فى نحو الثامنة والنصف صباحا حتى أضمن أن نتمم جميع الإجراءات فى وقت يسمح لنا بالذهاب إلى الحسين ثم بعد ذلك إلى مسجد القوات المسلحة بمدينة نصر قبل صلاة الظهر .

وجدتُ أن أسرة الأستاذ سبقتنى إلى هناك . شكرتنى السيدة زوجته ؛ إذ علمَتْ من المستشفى أننى سأحضر بنفسى عملية الغسل . كان الأستاذ «توفيق صالح»

موجودا هو وأسرته. قال لى: «أنا سأحضر معك». أخذتُه جانبا وقلت له: «قد نُفتَّش قبل الدخول»، فبدت عليه علامات الاندهاش. قلت: «لا تنزعج. إنها - حسب ما فهمت - مجرد إجراءات أمن يجب أن تأخذ مجراها، فإذا كنتَ ستدخل معى فهيا بنا حتى لا نتأخر».

نزلنا مع طاقم المستشفى إلى الدور الأرضى، ومنه إلى ساحة خلفية تم فَرْشُها بالأبسطة وغُطيت جدران المبنى المطل عليها بقماش السرادقات، إلى أن وصلنا إلى باب غرفة الثلاجة. وجدت بعض أصدقاء الأستاذ. تقدم منى الكاتب «زكى سالم» وقد كان يلتقى الأستاذ مساء الاثنين من كل أسبوع، وقال: «أنا لم أتمكن من رؤيته طوال فترة وجوده فى المستشفى بسبب منع الزيارة. جئت إليه أكثر من مرة ولم يكن يُسمح لى بالدخول. كل ما أرجوه الآن هو أن ألقى عليه نظرة الوداع». قلت: «أشعر بألمك يا أستاذ زكى، لكن للأسف لم يَعُدْ من الممكن الآن لأحد أن يراه أو يقترب منه».

كانت هناك على باب الثلاجة سيارة مجهزة لحمل النعش الخشبى الذى كان موضوعا على الأرض وحوله عشرة من الشباب ذوى القامات الرياضية اليافعة. كانوا هم أفراد الحرس الذين سيتولون حراسة النعش إلى أن يتم تسليمه إلى المراسم العسكرية فى مسجد القوات المسلحة لتخرج به الجنازة. كانوا يلبسون سترات ملكية متشابهة، لونها كلها رمادى داكن. بدوا جميعا وكأنهم مستنسخون من فرد أمن واحد فارع الطول عريض المنكبين!

خرج رجل فجأة من داخل غرفة الثلاجة. كان فى العقد السادس من عمره، يلبس جلبابا أبيض ويميل إلى البدانة، لو رأيته فى الشارع لَخِلْتُهُ جزارا! نظرت إليه مستفسرا، فقال: أنا «المغسلاتى».

التفتُّ إلى الأستاذ «توفيق صالح» الذى قال: «أنا لن أستطيع الدخول. لكن ابنى محمد سيدخل معك». قلت: «لا داعى لذلك، وجودى يكفى حتى لا نترك الجثمان وحده». لكن الأستاذ «توفيق» أصر قائلا: «لا لا، إنه يريد أن يدخل

معك». أقبل «محمد توفيق صالح» مبديا رغبته الصادقة فى حضور مراسم غسل الجثمان. نظرت إلى المُغَسِّل وقلت: «فلنبدأ على الفور حتى لا نتأخر»، وانتظرت أن يقوم أحد بتفتيشى كما قيل لى بالأمس، لكن أحدا لم يفعل، ففتح الرجل الباب ودخلنا جميعا إلى الثلاجة.

كانت الغرفة باردة، جدرانها مكسوة بالقيشانى الأبيض كالحمامات، وعلى جانبين منها أدراج من الصاج بطول جسم الإنسان. خلع المغسل جلبابه وفتح الدرج السفلى ناحية اليسار، وطلب منى أنا و«محمد» أن نساعده فى نقل الجثمان الملفوف فى ملاءة بيضاء من الدرج إلى الطاولة التى كان سيُجرى عليها عملية الغسل. قابلنى وجه الأستاذ الذى شاهدته بالأمس على سريره بغرفة العناية المركزة. فتح المغسل صنبور الماء الذى كان إلى يساره فى ركن الغرفة، ثم أحضر خيوطا ليفية كان حريصا على أن يرينا أنها جديدة، وبدأ عملية الغسل.

أعتقد أن الرجل كان طوال عملية الغسل يرتل القرآن أو بعض الأدعية، لكننى لست متأكدا. ربما لم يتكلم على الإطلاق! لا أذكر، فقد كنت مأخوذا بالمشهد المهيب الذى كان يجرى أمام عينى، وقد صُمَّتْ أذنَيَّ وفقدت جميع حواسى الأخرى.

بين الآن والآخر كان الرجل يقول لنا: «اسندوا معايَ»، وفى كل مرة كنت ألمس جسده الطاهر كنت أود أن أصيح قائلا: «إنه حى لم يمت، هذا جسده لَيِّن كأجسادنا تماما!»، لكننى كنت أنظر إلى وجهه، أو الوجه الذى كان له، فأدرك أنه رحل وترك لنا فقط الرداء الذى كان يرتديه، فأسكت ولا أنطق.

كان جسده أبيض صافيا كجسد القديسين، فقط لاحظتُ أن يده اليمنى تورمت بشكل ملحوظ. كانت فى لون الدم حين يحتبس فيتحول إلى الزرقة الداكنة. يالهذه اليد التى رفعت شأننا بين أمم الأرض جميعا، والتى قبّلها بعض أكبر كُتّاب العالم أمام عينى! لماذا بدت الآن هكذا مكورة كاليد المعاقة، واختلف لونها عن لون جسده المسجى أمامنا؟ ترى كم عقدًا سننتظر حتى تأتينا يد مثلها؟ كان الناشر

الأمريكى على حق فيما قاله، وكان وزير الصحة مخطئا حين قال إنه لم يكن يحتاج إلى علاج فى الخارج، فغير صحيح أنه لم يكن مصابا بمرض لا علاج له عندنا. لقد كان مصابا بمرض الشيخوخة التى تختلف الإصابة فيها بأى مرض عن الإصابة بنفس المرض فى سن الشباب، لذلك هناك تخصص فى الطب يسمى GERIATRICS، أى طب أمراض الشيخوخة، على أساس أن الأمراض التى تصيب الإنسان فى السن المتقدمة تكون مضاعفاتها مختلفة عنها حين تصيبه قبل سن الشيخوخة، ومن ثم فإن علاجها قد يختلف أيضا فى سن الشيخوخة. هذا التخصص غير موجود فى كليات الطب عندنا. سألتُ الدكتور «حسام موافى» ذات مرة: «لماذا ليس لدينا أطباء أو مستشفيات متخصصة فى أمراض الشيخوخة؟»، فقال: «لأننا ليس عندنا شيخوخة. الناس عندنا لا يعمّرون مثلما يعمّرون فى الخارج». إذن فقد كانت مشكلة الأستاذ أنه كان معمرا فى بلد لا يعرف أهله كيف يتعاملون مع المعمرين!

على أن تعاملنا معه أثناء حياته لم يكن أفضل كثيرا مما كان خلال فترة مرضه، فقد رميناه بالكفر والإلحاد، ونفذنا فيه أحكاما بالإعدام دون محاكمة.

وبينما كان الرجل يواصل طقوس الغسل، خلْتُ صوت الأستاذ الذى لم أسمعه منذ أكثر من أسبوعين يأتينى ثانية، فأسمعه واضحا مثلما كنت أسمعه حين كان يسجل لى بصوته أحد أحلامه:

«فى قريتنا كل فرد ينتظر رسالة قد تقرر مصيره. وذات يوم تلقيت رسالتى، فقرأت فيها أن الحكم صدر بإعدامى شنقا، وذاع الخبر كعادة تقاليدنا، فاجتمع أعضاء نادى القرية وقرروا الاحتفال بالأمر فى حينه، أما فى بيتى حيث أعيش مع أمى وإخوتى وأخواتى فقد انشرحت الصدور وعم السرور. وفى اليوم المنتظر دقت فى النادى الطبول، وخرجت أنا من بيتى فى أحسن زينة محاطا بأفراد أسرتى، ولكن أمى شذت عن حالنا فدمعت عيناها، وتمنت لو كان العمر امتد بأبى حتى يشهد بنفسه هذا اليوم السعيد».

حين انتهى المغسل أحضر ماء صافيا فأزال به كل آثار الصابون، وقام برش ماء الورد على الجثمان الطاهر، ثم طلب أن نحضر له الكفن من ورائنا، فناوله إياه «محمد». قال لنا الرجل وكأنه يرفع من قيمة بضاعته: «هذا من أفخر أنواع الأكفان. لقد كان مقام المرحوم كبيرا جدا». ثم لف الجثمان فى الكفن عدة لفات وربطه بإحكام فوق الرأس وعند القدمين، ثم ارتدى جلبابه ثانية.

انفتح باب الثلاجة كما ينفتح باب المقبرة الفرعونية التى ظلت مقفلة آلاف السنين، وخرجنا إلى الهواء.

تم وضع الجثمان فى النعش وأُحكم غلقه، ثم وُضع فوقه مفرش مخملى أخضر تطرزه بعض الآيات والأدعية. قام أفراد الحرس بنقله إلى السيارة، وانطلقنا فى تمام التاسعة والنصف صباحا إلى الحى القديم الذى ولد فيه «نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم الباشا» قبل نحو ٩٥ عاما، والذى عاش فيه أجمل سنوات عمره، وظل يعود إليه حتى بعد أن رحل عنه. وها هو الآن بعد أن رحل عن الدنيا يوصى بأن يعود مرة أخرى إلى نفس الحى.

٢٣

كان ما يقلقنى ونحن نستعد للخروج بالسيارة التى تحمل النعش من المستشفى هو زحام الطريق عبر منطقة وسط البلد إلى شارع الأزهر فجامع الحسين، والجموع التى كانت ستتوافد على الجامع، خاصة بعد أن نشرت الصحف فى صباح ذلك اليوم أنه ستكون هناك «جنازة شعبية» فى مسجد الحسين قبل الجنازة العسكرية. هل سنتمكن من اختراق الزحام المعهود الذى لابد سيزداد بفعل من جاءوا للمشاركة فى تشييع الجنازة الشعبية؟

انطلقنا جميعا خلف سيارة النعش التى كانت تتقدمها سيارة حراسة وتتبعها سيارة حراسة. كانت هناك حوالى عشر سيارات. تبينتُ وسط ما كان يشغلنى

بعض الوجوه التى كانت بداخلها من الأقارب والأصدقاء: المستشار «حسين عبد العزيز» أكبر أبناء أشقاء الفقيد والوريث المشارك مع الزوجة السيدة «عطية الله» والابنتين «أم كلثوم» و«فاطمة» فى الميراث، والأساتذة «عمرو» و«على توفيق عبد العزيز» أحفاد شقيق «محفوظ» الأكبر، ثم الأصدقاء المقربين «توفيق صالح» و«جمال الغيطانى» و«يوسف القعيد» و«زكى سالم»، بالإضافة لأسرة الفقيد وبعض السيدات المصاحبات لهن.

خلال ما لا يزيد على خمس عشرة دقيقة كنا قد وصلنا بالفعل إلى الحسين، فقد تم إخلاء الشوارع تماما من المارة، وتوقفت السيارات على الجانب الآخر من الطريق، وفُتحت جميع الإشارات. الشىء نفسه جرى فى جامع الحسين، حيث كان قد تم إخلاؤه كذلك والساحة المحيطة به من الناس بكردون كبير حال دون وصول أحد إلى المسجد.

نزلنا جميعا من السيارات أمام المسجد وفُتحت سيارة النعش، وقام نفس طاقم الحرس الذى وضع النعش فى السيارة فى المستشفى بإنزاله.

ما إن ظهر النعش ملفوفا فى المفرش الأخضر حتى اندفعت بضع عشرات من المواطنين مخترقين كردون الأمن وهرعوا إلى داخل الجامع قبل أن تتمكن قوات الأمن من اعتراضهم، فدخل النعش الجامع محاطا بما لا يقل عن مائة شخص وكأنهم رُسُل بقية الجماهير الواقفة هناك بعيدا عن المسجد لا تستطيع الوصول إلى الجثمان.

فى الداخل قام الحرس بوضع النعش عند منبر الجامع، وما هى إلا لحظات ودخل شيخ الأزهر، فضيلة الإمام «سيد طنطاوى»، ومعه فضيلة المفتى الدكتور «على جمعة» والدكتور «محمود زقزوق» وزير الأوقاف. قام كل منهم بإلقاء كلمة عن الراحل الكبير، استهلها شيخ الأزهر مشيدا بمكانة الأديب الراحل، وداعيا الله أن «يحشره مع الأنبياء والصديقين فى جنات النعيم». كما أشاد فضيلة المفتى بما حققه الراحل الكبير من خدمات جليلة لوطنه، وقال وزير الأوقاف إن مصر تعتبره الهرم الرابع لما أضافه للحضارة المصرية المعاصرة من أثر خالد لا ينسى.

ثم أمَّ شيخ الأزهر الصلاة على روح الفقيد. حين أتمها كان «جمال الغيطانى» إلى جانبى. قلت له: «لنحمل نحن الأستاذ على أكتافنا إلى خارج الجامع، ففى الجنازة العسكرية لن يستطيع أن يقترب منه أحد». فوافقنى بلا تردد. ذهبت إلى رئيس الحرس وقلت له: «أستأذنك فى أن يخرج النعش من الجامع محمولا على أكتاف كُتّاب مصر». قال: «انتظر، سأرد عليك». ثم عاد إلىّ بعد لحظات ليقول: «للأسف لن يكون ذلك ممكنا». كان النعش قد بدأ يتحرك، فتركت الرجل وذهبت مع «جمال الغيطانى» فحملنا النعش سويا مع أفراد الحرس، إلى أن خرجنا إلى ساحة الجامع. كانت الساحة قد امتلأت بعشرات آخرين نجحوا أثناء الصلاة على الجثمان فى الوصول إلى مدخل الجامع. خلف الكردون كانت هناك مئات - بل ربما آلاف - من المواطنين الذين حاولوا دون جدوى الوصول إلى الجثمان.

من بعيد رأيت بعض المواطنين وقد حملوا اللافتات التى كانوا ينوون أن يشاركوا بها فى الجنازة الشعبية التى حدثَتْهم عنها صحف الصباح. كانت تحمل كلمات تلقائية لأناس بسطاء ربما عرفوا «نجيب محفوظ» أو كانوا يقابلونه فى هذا الحى. كتب أحدهم: «محفوظ دائما فى القلوب.. يا ابن مصر المحبوب!»، وكتب آخر: «إلى جنة الخلد يا ابن حارتنا!»، وكتب ثالث: «الوداع يا شكسبير العرب!».

ثم لمحت الكاتب الشاب «أحمد سعيد»، الذى كان كثيرا ما يحضر لقاءات الأستاذ مساء الأحد بفندق «شبرد»، وقد وضع صورة ضخمة لوجه «نجيب محفوظ» على صدره. رآنى من بعيد، فاندفع إلىَّ مخترقا كل الحواجز، وعانقنى وقد دمعت عيناه. فى صباح اليوم التالى كانت صورة «نجيب محفوظ» تتصدر الكثير من الصحف العربية والأجنبية وهى موضوعة على صدر «أحمد سعيد».

عاد النعش إلى السيارة مرة أخرى بعد نصف ساعة لا أكثر قضيناها فى مسجد الحسين تنفيذا لرغبته، ثم انطلقنا جميعا إلى مسجد القوات المسلحة بمدينة نصر

وسط طريق شبه خال، لا سيارات فيه ولا مارة، فوصلنا إلى الجامع فيما لا يزيد عن خمس عشرة دقيقةً.

٢٤

كانت الترتيبات الأمنية دقيقة ومحكمة، لكنها من شدة إحكامها أوصلتنا إلى مسجد آل رشدان - الذى كنت أخشى أن نصله متأخرين بسبب زحام الطريق - قبل موعد الجنازة بحوالى ثلاث ساعات. لم تكن الساعة قد تخطت العاشرة والنصف بعد، وكانت الجنازة ستخرج بعد صلاة الظهر، أى فى حوالى الواحدة والنصف بالتوقيت الصيفى.

حين وصلنا إلى مسجد آل رشدان لم نكن أكثر من ثلاثين أو أربعين شخصا هم الذين صاحبوا الجثمان إلى مسجد الحسين للصلاة. دخلت السيارة التى تحمل الجثمان من المدخل المعد للجنازة، والذى كانت أمامه متاريس أوقفت بقية السيارات. وجهنا أفراد الأمن إلى الشارع الجانبى حيث مدخل المسجد، فأكملنا دورتنا حسب التوجيهات إلى أن وصلنا إلى هناك. منعت قوات الأمن مرور السيارات، فنزلنا وتَرَجَّلْنا إلى مدخل المسجد.

جلست أسرة الفقيد فى إحدى قاعات المسجد، على حين تجمَّع الرجال فى القاعة الأخرى. لابد أننا أمضينا ما يزيد عن الساعة قبل أن يبدأ حضور بعض المشيعين الواحد تلو الآخر. كان معظمهم من المسئولين الرسميين يتقدمهم رئيس الوزراء وبعض الوزراء والسفراء وعدد من الشخصيات الثقافية والفنية، والذين لم يزد عددهم جميعا عن خمسين شخصا.

كنت واقفا مع «يوسف القعيد» حين جاء بعض أعضاء مراسم الرئاسة يسألون من هم الأقارب الذين سيصافحهم الرئيس عند انتهاء الجنازة. قال «يوسف القعيد»: «أقرب الأقرباء هو المستشار حسين عبد العزيز»، وأخذهم إليه، وكانت

السيدة «عطية الله» قد أعطتنى أيضا اسمىْ ابنى شقيقه «توفيق» ـ وهما «عمرو» و«على» ـ فأعطيتهم الاسمين .

كان الجو حارا ، وكان علينا أن نجلس فى الشمس خارج المسجد لاستقبال المشيعين الذين كانوا يتوافدون كل بضع دقائق ، فكنت بين الآن والآخر أدخل إلى المسجد أجالس بعضهم .

سألنى سفير إحدى الدول الغربية الكبرى : «لماذا الجنازة عسكرية؟ هل كان محفوظ فى الأصل ضابطا؟» . قلت : «الجنازة العسكرية هى أكبر تكريم جنائزى فى مصر ، ومن بين من يستحقونها الحاصلون على أكبر وسام مصرى ـ وهو قلادة النيل ـ التى منحها الرئيس مبارك لمحفوظ بعد حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٨٨» .

بعد قرابة الثلاث ساعات حان موعد صلاة الظهر ، فبدأ المشيعون يسألون : «أين الجثمان؟ ومتى ستقام صلاة الجنازة؟» ، على حين أخذ من أقاموا معنا صلاة الجنازة فى الحسين يتساءلون بدورهم إن كان يجوز إقامة صلاة الجنازة مرتين ، لكن أحد مسئولى الأمن قال إنها تجوز ، وإن شيخ الأزهر ذهب بالفعل ليؤمها ، فأسرع المصلون إلى داخل المسجد ، وسألنى أحدهم : «ألن تأتى معنا؟» ، قلت : «لقد صليت عليه صلاة الجنازة فى جامع الحسين الشريف كما كانت رغبته» .

بعد قليل عاد المصلون ، وقيل لنا أن نذهب إلى الشارع الذى دخلت منه سيارة النعش حيث ستخرج الجنازة . توجهنا جميعا إلى حيث وجهونا . فى الطريق كان إلى جوارى الدكتور «أحمد نظيف» الذى قال لى أثناء سيرنا : «أشعر أن مصر فقدت اليوم إحدى ودائعها الثمينة» . قلت : «بل اليوم هو موعد استحقاق هذه الوديعة . لقد ظلت تتزايد قيمتها وتدر فوائدها علينا سنة بعد سنة طوال حوالى قرن من الزمان . من اليوم سيتحول نجيب محفوظ من كاتب كبير إلى أسطورة أدبية من أساطير العالم مثله مثل دانتى وشكسبير وجوته ، وتلك قيمة مضافة لمصر . المهم هو أن نعرف كيف نستثمرها» .

حين وصلنا إلى حيث يستقر النعش، كان الغطاء الأخضر قد رُفع عنه واحتضن النعشَ الآن علمُ مصر بألوانه الثلاثة. كان النعش الآن مستقرا على عربة مدفع نحاسية وخلفه جنديان يحملان الأوسمة التى سلمناها الليلة الماضية. وراء العربة وقف المشيعون يتقدمهم المسئولون وبعض رجال القوات المسلحة والشرطة فى انتظار وصول الرئيس. ذهب رئيس الوزراء إلى حيث اقتادوه، ووقفتُ مع بقية المشيعين الذين اصطفوا خلف المسئولين وكأنهم فى طابور عسكرى لم يصدر إليه الأمر بالتحرك بعد.

زاد وهج الشمس، فازداد بريق عربة المدفع. كان «جمال الغيطانى» يقف إلى جوارى. شَخَصْنَا ببصرينا إلى النعش الموضوع أمامنا وإلى الخيول التى تجر العربة، ولاحظنا النقوش الفرعونية التى تزين العربة، فقال «جمال»: «أتصور أن جنازة رمسيس الثانى كانت هكذا، فمصر الرسمية حين تريد أن تكرم أحد أبنائها تكرمه وكأنه فرعون عظيم!».

بعد دقائق ظهرت مجموعة من السيارات السوداء التى مرت فى هدوء إلى جوار الموكب. حين وصلت إلى مقدمة الركب حيث الجثمان توقفت ونزل من إحداها رئيس الجمهورية، ومن أخرى نجله السيد «جمال مبارك». اتخذ الرئيس مكانه بين المشيعين، فوقف فى الصف الأول ما بين المشير «حسين طنطاوى» وزير الدفاع إلى يساره والدكتور «أحمد نظيف» رئيس الوزراء إلى يمينه، واتخذ «جمال مبارك» مكانه خلفهم، ثم خطا الرئيس بقدمه اليمنى، فتحرك الركب من سكونه وبدأت الجنازة، فعزفت الموسيقات العسكرية اللحن الجنائزى.

بعد بضع دقائق كنا قد قطعنا خلالها مسافة حوالى خمسين مترا توقفت الجنازة، وقام أمن الرئاسة باقتياد أبناء شقيقى الفقيد إلى منصة صغيرة، حيث توجه إليهم رئيس الجمهورية لتقديم واجب العزاء، ثم ركب الرئيس إحدى السيارات السوداء التى كانت تسير فى هدوء إلى جانب الموكب طوال وقت الجنازة وانصرف، على حين استمر بقية المشيعين دقائق أخرى يصافحون أقارب الفقيد عند المنصة.

فجأةً تبعثر هذا البنيان المرصوص، فاختفى النعش، ولم نعرف أين ذهبت عربة المدفع وأين ذهب المسئولون، وصرنا نتلمس طريقنا وسط الصحفيين وكاميرات التليفزيون الذين كانت قوات الأمن تحتجزهم حتى مغادرة الرئيس، ثم سمحت لهم فجأة بالدخول فانسابوا كالشلال الهادر! كان كل منا يبحث عن الآخرين وعن سيارته، فلم يكن أحد يعرف مكان المدفن. وكنا سنسير جميعا خلف سيارة الجثمان. كانت مظاهر الانضباط التى أمَّنها جهاز أمن الرئاسة قد اختفت فجأة من المكان، وكان علىَّ أن أعتذر عن كل طلب لقاء مع الإعلام لأبحث عن السيارة التى كانت ستُقلّ الجثمان إلى المدفن الذى يقع فى مكان ما فى طريق الفيوم. كان المدفن القديم لأَسرة الأستاذ فى منطقة المجاورين، وقد تمَّت إعادة تخطيط المكان وأزيلت المدافن التى كانت فيه. عندئذ اقترح «توفيق صالح» على الأستاذ أن يشترى مدفنا إلى جوار مدفنه فى طريق الفيومٍ.

لم أستدل وسط تلك الفوضى إلا على آخرين مثلى يبحثون عما أبحث عنه. فى النهاية لمحت سائقى من بعيد. كان قد عاد يبحث عنى بعد أن احتجزَتْه قوات الأمن مع بقية السيارات. كان معه سائق «إبراهيم المعلم» الذى سألنى إن كنت قد رأيت المهندس «إبراهيم المعلم»، وسألت السائقَيْن بدورى إن كانا قد شاهدا أحدا ممن كانوا معنا. قال لى سائقى إن الأستاذ «توفيق صالح» ركب فى سيارة النعش، وإنها غادرت المكان منذ لحظات. وكنت قد لمحت «إبراهيم المعلم» يدلى بتصريح لإحدى القنوات التليفزيونية، فأشرت إليه بأن سيارته ظهرت. ترك الكاميرا، أو ربما انتهى بسرعة مما كان يقوله، وجاء. . فركبت معه وطلبت من سائقى أن يتبعنا، وقد أنقذنى السائق بأن أعاد إلىَّ تليفونى المحمول الذى كنت قد تركته فى السيارة بناء على تعليمات الأمن.

ما إن استعدتُ تليفونى المحمول حتى بدأتُ خلال رحلتنا إلى المدفن فى محاولة الاتصال ببقية الناس لأعرف أين هم، ولأسأل عن طريق المدفن. اتصلت برقم «توفيق صالح»، فوجدته قد ترك تليفونه مع زوجته التى طمأنتنى على الأقل أن السيدة «عطية الله» معها وأن «هدى» و«فاتن» تتبعانهما فى سيارة أخرى. سألتها

عن مكان المدفن باعتباره مجاورا لمدفن زوجها. وصفته لى، ثم سألتنى عن «توفيق صالح». قلت لها إنه شوهد يركب سيارة النعش. كذلك اتصل «إبراهيم المعلم» بـ«يوسف القعيد» فوجده فى الطريق بالفعل إلى المدفن مع «جمال الغيطانى». هكذا بدأت الخيوط تتجمع من جديد لتلتئم الصورة ونحن فى الطريق الصحراوى إلى الفيوم بعد أن تفرقت أطرافها كورقة تمزقت قطعا فقذف بها ريح الصيف الأهوج فى كل الاتجاهات!

٢٥

وصلنا إلى المقبرة قبل وصول الجثمان. لم يكن هناك غير رجال الأمن وبعض أصدقاء الأستاذ المقربين: «جمال الغيطانى» و«يوسف القعيد» وآخرين، منهم «عزيزة اليازجى» التى كانت تحضر لقاء الأستاذ مساء الأربعاء بفندق «سوفتيل» بالمعادى، فهكذا كان أصدقاء «نجيب محفوظ» يصنفون أنفسهم، فيقولون على شخص إنه «أربعائى» أو «جمعاوى» نسبة إلى اليوم الذى يقابل فيه الأستاذ، ومن اليوم يمكنك أن تعرف بشكل أو بآخر إن كان الشخص المذكور من كبار الأدباء الذين يلتقون به فى «فرح بوت» مساء الثلاثاء، أو من «الحرافيش» إذا كان يلتقى به مساء الخميس فى بيت «توفيق صالح»، وهكذا.

كانت الصحراء تحيط بالمدفن من كل جانب. ما الذى دعاه هو و«توفيق صالح» لاختيار هذا المكان القفر الذى يبعد عن المدينة حوالى ٣٠ كيلومترا؟ لقد عاش المصرى دائما وسط المقابر، وكان يدفن موتاه قريبا من العمران، فهو لا ينفصل عنهم إذا ماتوا، بل يظل يزور والديه وأقاربه فى الأعياد والمواسم وكأنهم أحياء. مناطق المدافن فى القاهرة فى حى «الإمام الشافعى» أو البساتين أو غيرها، كانت فى نفس الوقت مناطق سكنية. أهى عقيدة فرعونية تؤمن بأن الموت ما هو إلا مرحلة انتقالية يعود بعدها الإنسان إلى الحياة، مثلما يفصل الليل بين نهارين؟

المدفن متواضع يعبّر عن تواضع صاحبه. بُنى من الطوب الأحمر، وتعلوه لافتة تقول فى اقتضاب وبلا ألقاب «مدفن نجيب محفوظ». صدمتنى كلمة «مدفن»، فلم أكن أتخيل أن يقترن اسم «نجيب محفوظ» بها وهو الذى عشق الحياة وعاشها «بحلوها ومرها» كما كان يقول. لكن من قال إن الموت هو نهاية المطاف؟ إنه لم يكن يعتقد ذلك. فى ملحمة «الحرافيش» قال: «الموت لا يجهز على الحياة، وإلا أجهز على نفسه!».

لافتة الاسم تعلوها آية تقول: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم. كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾، وقد أحاطت بها من كل جانب كلمة: إلى اليمين كلمة «الله»، وإلى اليسار كلمة «محمد».

على مدخل المقبرة أقيم سرادق لحماية القادمين لحضور الدفن من شمس الصيف الحارقة، ووُضعت فيه بعض الكراسى.

خرجت من المقبرة ومن السرادق إلى الصحراء..

«الموت!.. يا له من حقيقة مخيفة!.. لم أشعر بهولها من قبل.. ترى ما هو هذا اللغز الغامض؟ وما كنهه؟ وما حقيقة الروح التى ستفارقنا جميعا بعد زمن يسير وتصعد إلى بارئها؟»

كلمات كتبها «نجيب محفوظ» فى قصة قديمة تحمل عنوان «حكمة الموت». لابد أنها كانت من أوائل قصصه المنشورة، فقد ظهرت عام ١٩٣٨ فى مجلة اسمها «الرواية»، ثم طواها النسيان إلى أن أرسلها إلىَّ المهندس «محمود الكردى» ابن شقيقة الأستاذ.

يمضى الراوى فى القصة ـ والذى قارب على الموت ـ فيسأل نفسه:

«ماذا صنعت بحياتى؟»

ثم يقول:

«قد يطرح هذا السؤال قوم فيأتيهم الجواب السعيد فى آيات الفكر التى أورثوها

الإنسانية كافة، أو الأعمال المجيدة التي بذلوها لأوطانهم، أو الكفاح النبيل الذي أدوه للأسرة والأبناء..»

هل كان يدرك الأستاذ وهو يكتب هذه «الأقصوصة المصرية» كما أسماها، وكان ما زال في السابعة والعشرين من عمره، أنه يكتب عن نفسه وعن **«آيات الفكر العظيم التي أورثها الإنسانية كافة»**؟ من يدري؟ في جميع الأحوال ها قد أتمت حياته الآن دورتها. كنا نتصوره لن يرحل عنا أبدا. ها قد وصل إلى المحطة الأخيرة، وقد تصورنا أن القطار لن يغادر محطة سيدي جابر أبدا! كان يعرف أن محطة نزوله هي التالية مباشرة، وأن القطار سيتوقف فيها لا محالة مهما تلكأ في محطة سيدي جابر، وعندئذ سيتحتم عليه مغادرة القطار.

لكنه فعل الكثير قبل أن يغادر القطار، الكثير من **«آيات الفكر العظيم التي أورثها الإنسانية كافة»**، فقد تفرد «نجيب محفوظ» بين كُتّابنا جميعا بأنه عاصر وعايش أهم الأحداث الوطنية الكبرى التي مرت علينا، طوال فترة تقترب من القرن، وهو القرن العشرون الذي شهد أهم التطورات في تاريخنا الحديث، ابتداء من الكفاح ضد الاحتلال في بداية القرن، إلى ثورة ١٩١٩، إلى فترة ما بين الحربين العالميتين، إلى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وما تلاها من تغييرات اجتماعية وسياسية، إلى حرب أكتوبر واتفاقية كامب ديفيد وعصر الانفتاح، وحتى عصرنا الحالي.. فإذا أردتَ أن تطلع على هذا التاريخ فستجده في مؤلفاته التي قاربت الـ ٥٠ : في روايات «الثلاثية» و«القاهرة الجديدة» و«ميرامار» و«يوم قُتل الزعيم». ستجده في قصصه القصيرة التي تزيد على الـ ٣٥٠، في «الحب فوق هضبة الهرم» و«أهل القمة» وغيرهما. ستجده أيضا في مسرحياته المنسية، رغم أنها من أجمل مسرحيات الفصل الواحد في مكتبتنا العربية.

وكم من سفير أجنبي قال لي إنه فهم مصر من خلال قراءته لأعمال «نجيب محفوظ». منهم سفير فرنسا السابق «برونو دي لوس»، وكان من أفضل سفرائها جميعا. قال لي إنه وجد في أعمال «نجيب محفوظ» ما لم يجده في كتب التاريخ،

وهو البشر. بذلك فهم تاريخ مصر الحقيقى، لأن البشر هم الذين يصنعون التاريخ بتطلعاتهم وآمالهم. . وبانكساراتهم أيضا.

على أن قيمة «نجيب محفوظ» ليست فى هذا السجل الاجتماعى الذى يمثله إنتاجه الأدبى، وإنما هو أيضا فيما صنعه «محفوظ» للأدب العربى ذاته، لفن الرواية التى فتح أمامها أبوابا جديدة لم تكن قد طرقتها من قبل. كتب «محفوظ» الرواية التاريخية والواقعية والتجريبية والفلسفية والملحمية، وله من الروايات ما يستعصى على التصنيف التقليدى الذى هو للروائيين الآخرين لكنه ليس للعباقرة. العباقرة يتفوقون على كل القواعد المتعارف عليها، فيُرسون بدلا منها قواعد جديدة تصبح بعد ذلك متعارفا عليها لمن يأتى بعدهم.

هكذا كان وسيكون «نجيب محفوظ»، وما علينا إلا أن ننظر للرواية العربية كما كانت قبله وكما أصبحت بعده لندرك حجم التطور غير المسبوق الذى صنعه للرواية العربية دون فخر ولا تفاخر؛ فهذا العملاق الذى قيدت له الأقدار كل أسباب الفخر والتفاخر كان أكثر خلق الله تواضعا. ما زلت أذكر أول تعليق له حين فاز بجائزة نوبل، حيث قال: «كان أساتذتى أحق بها منى»، وقصد بذلك «العقاد» و«المازنى» و«طه حسين» و«توفيق الحكيم».

وفى وقت اعتدنا فيه أن نقيس قيمة عظمائنا بمقدار مجاراتهم للغرب، فنقول إن فلانا عظيم لأنه يكتب الرواية مثل «تولستوى» أو «ديكنز» أو «فلوبير»، فقد استطاع «نجيب محفوظ» أن يصنع للرواية العربية شخصية خاصة بين الروايات العالمية، حتى إن الباحث والناقد الأمريكى الكبير «روجر ألن» يقول الآن: «إن محفوظًا نجح فى إيجاد ما يمكن أن يطلق عليه «الرواية العربية» كتقليد أدبى قائم بذاته أسوة بالرواية الروسية أو الفرنسية أو الإنجليزية التى لكل منها خصائصها».

لقد أسعد «نجيب محفوظ» أجيالا متعاقبة من القراء على امتداد العالم العربى، وشارك فى تشكيل وجدانها على مدى سنوات القرن العشرين كلها، وامتد أثره إلى خارج حدود الوطن العربى بملايينه الـ ٣٠٠، ليغزو وجدان العالم الخارجى الذى لم يزره «محفوظ» قَطّ.

لقد وصلنا الآن برحيله إلى نهاية مرحلة فاصلة فى تاريخنا الأدبى. رحل عنا آخر عظماء الأدب فى هذا العصر البائس، ويشعر بفقدانه الآن العالم الخارجى بقدر ما نشعر به نحن فى الداخل. رحل عنا ابن الجمالية وحى الحسين الذى أوصل شخصيات حواريهما من خلال أدبه إلى العالمية. لقد ذهب للقاء من كان يُجلُّهم ويقدر عطاءهم. إنه الآن مع «المنفلوطى» و«طه حسين» و«العقاد» و«المازَنى» و«توفيق الحكيم».. إنه مع «البحترى» و«أبى نواس» و«المتنبى» و«بشار بن برد»، على حين أننا ما زلنا هنا نسجل فى دفاترنا التعيسة غياب عَلَم آخر من أعلام أمتنا العربية المكلومة.

لقد استطاع أديبنا الأكبر أن يتمثل تراثا عربيا عريقا من الحَكْى، ابتداء من «ألف ليلة وليلة» إلى «حديث عيسى بن هشام» و«السيرة الهلالية»، مضافا للتراث الأدبى العالمى الذى كان يلتهمه التهاما، فأبدع لنا فى النهاية أدبا عصريا ساهم فى إعطاء الرواية العربية شخصيتها المتميزة التى كتب عنها النقاد فى العالم الدراسات والأبحاث.

وهو أيضا الذى تَمَثَّلَ حضارة مصر القديمة التى عشق آثارها منذ الصغر وكان يذهب مع والدته لزيارتها وهو ما زال طفلا، ثم حين بدأ الكتابة الروائية جَسَّد بعض أجمل لحظات تاريخها الحافل فى أعماله الأولى.

إن كلماته فى خطاب نوبل - التى كنت أول من قرأها على الناس فى الأكاديمية السويدية العتيدة بستوكهولم - ما زالت ترن فى أذنى وهو يقول للعالم: «أنا ابن حضارتين: الحضارة العربية الإسلامية وحضارة مصر الفرعونية!».

بهاتين الحضارتين معا صنع لنا مجدا حديثا نفاخر به بين سائر الناس. به ارتفعت هامتنا عالية وسط أمم الأرض، وبه تعاظمت مكانتنا الثقافية فى العالم. كان عَلَما خفاقا فى سمائنا يشار إليه بالبنان، فيقال: هنا قمة من قمم الحضارة والفكر والثقافة والأدب فى العالم. لقد حقق ما لا يحققه إلا القليلون، حيث أصبح رمزا للوطن ذاته، فلا يُذكر اسم مصر والأدب العربى إلا مقرونا باسم «نجيب محفوظ».

والآن ها قد سكتت الكلمات . . صارت خرساء كأحجار ذلك المدفن المقام وسط صمت الصحراء . . تساقطت الحروف جميعا ، فأصبحت شجرتنا الأدبية جرداء لا ورق فيها ولا ثمار . . فقد رحل من صنع بالكلمات أجمل المعانى وقدم أرقى الأفكار . هو الذى بعث الحياة فى الحروف الصماء ، فنطقت فى أعماله بحب مصر والمصريين ، وبعشق حارات أحيائها القديمة وأزقتها .

كيف لنا اليوم أن نكتب ذات الكلمات ونستخدم نفس الحروف التى صاغ بها أدبه الإنسانى الرفيع الذى انحنى له العالم أجمع بالاحترام والتقدير؟ من منا يجرؤ اليوم على القول بأنه أديب يكتب أدبا كالذى خطته يد أديبنا الكبير؟ من ذا الذى يستطيع أن يستنطق الكلمات بما نطقت به بين يدى ذلك الساحر الماهر الذى غمسها فى حب أبناء وطنه الطيبين؟

إن جسد الرواية العربية مُسَجًّى الآن داخل نعش ننتظر وصوله إلى المدفن . . والأدب العربى الحديث لن يعود أبدا كما كان!

٢٦

بعد طول انتظار وصلت السيارة التى تحمل النعش ، فعدت أدراجى إلى السرادق . كانت سيارة أخرى غير تلك التى نقلته من المستشفى إلى الجنازة العسكرية ، لا حرس فيها الآن ولا شباب مستنسخون . فى المقعد الأمامى كان يجلس «توفيق صالح» إلى جوار السائق . أنزلنا الجثمان من السيارة . كان القائمون على الجنازة العسكرية قد نزعوا عنه علم مصر وأعادوا تغطيته بالمفرش الأخضر ، لكن النعش كان الآن لنا ، نقترب منه إذا أردنا ، ونلمسه بأيدينا إن شئنا .

وضعنا النعش داخل السرادق فى انتظار وصول أسرة الفقيد حتى تبدأ مراسم الدفن . مرت «عزيزة اليازجى» بيدها فوق النعش وكأنها تسلم على من بداخله ، فى حين بدأ يتوافد على المدفن بعض الناس الذين لا نعرفهم . ربما كانوا من أقارب

الأستاذ. أخذ عددهم يتزايد، وحين وصلت السيدة «عطية الله» سألتُها من يكونون؟ قالت إنها لا تعرفهم. كان أحدهم يبكى بشدة، فاقتربتُ منه وسألته إن كان صديقا للأستاذ؟

قال لى وسط دموعه: «ليتنى كنت صديقا له مثلكم. أنا للأسف لم أقابله إلا مرة واحدة منذ سنوات فى كازينو النيل. لكننى كنت أعرفه كما تعرفونه تماما. لقد قرأت كل أعماله، وكان أقرب إلىّ من كثيرين أعرفهم معرفة شخصية».

قلت: «كيف عرفتَ هذا المكان الذى لم يكن أصدقاؤه يعرفونه؟». قال: «أنا أعرف كل شيء عن عم نجيب رحمه الله، وكثيرا ما أجد أن بعض ما يُنشر عنه فى الصحف غير صحيح، ويكون بوُدِّى أن أصححه لمن كتبوه».

بعد قليل وصلت سيارة «هدى» و«فاتن»، وكنا على وشك أن نبدأ الدفن حين اتصل بعض أصدقاء الأستاذ القدامى تليفونيا ورجونا أن ننتظرهم، وحين وصلوا بعد دقائق قالوا إنهم حاولوا حضور الجنازة لكن لم يُسمح لهم، وقالوا إن أعدادا أخرى من الناس حاولوا أيضا المشاركة فى الجنازة العسكرية دون جدوى.

رفعنا النعش على الأعناق واتجهنا به صوب المقبرة، وإذا بطلقات نارية يدوى صوتها وسط صمت الصحراء. كان هناك خارج المقبرة عدد من الجنود الذين أتوا خصيصا من أجل إطلاق هذه الطلقات أثناء عملية الدفن. ذلك جزء من مراسم الجنازة العسكرية. على صوت الطلقات النارية عبَر الجثمان مدخل المقبرة.

فجأة قفز المصورون بكاميراتهم فوق فتحة القبر كى يصوروا الجثمان أثناء نزوله فيه. رجوتهم أن ينزلوا فورا. قلت لهم إنه لن يكون هناك تصوير داخل المقبرة، وأن احترام الموقف من احترام الفقيد، فامتثلوا دون جدل أو حتى تذمر، فخرج البعض منهم، ومن لم يخرج أغلق كاميرته بنفسه وبقى رغبةً منه فى المشاركة فى دفن عزيز رحل.

تم فتح النعش وإخراج الجثمان. كان هذا هو الكفن الذى شاهدته يلف الجثمان ويُربط من فوق الرأس وعند القدمين.

جلست «هدى» و«فاتن» على كرسيين داخل المقبرة وقد فتحت كل منهما قرآنا وأخذتا تقرآن منه طوال فترة الدفن وحتى أغلقت المقبرة على الجثمان. السيدة «عطية الله» بقيت فى الخارج غير قادرة على الدخول. ما إن نزل الجثمان إلى المقبرة حتى انهار «جمال الغيطانى»، فأحطته بذراعيّ واقتدته إلى مقعد بعيد عن فتحة القبر. كان «جمال» فى تلك اللحظة - كما كتب فيما بعد - يرى عمره كله وهو يوارى فى التراب.

لم يجرؤ أحد منا على النزول مع الجثمان إلى القبر، لكن من بين الحاضرين كان هناك رجل فى منتصف العمر وجدته يخلع حذاءه وينزل فى خشوع مع الجثمان. حين خرج شددت على يده شاكرا، فذكر لى اسمه، وقال إنه طبيب من قراء الأستاذ العاشقين له مثله مثل ملايين آخرين عشقوه دون أن يعرفوه. احتضنته وتواعدنا على اللقاء.

ثم انغلق القبر على جثمان الأديب الكبير. انغلق القبر على الجسد لتتحرر الروح من أسر المكان والزمان وتحلق فى رحاب الخلود، لكنه بالنسبة لأحبائه وأصدقائه كان قد رحل بلا عودة.

بدأ الحضور يتصافحون وسط تأثر البعض ودمعات البعض الآخر. تفرقوا وسط صحراء الفيوم ليعود كل منهم إلى حاله فى المدينة الصاخبة. قال لى «إبراهيم المعلم»: «هل ستأتى معى؟»، قلت: «لا، سأعود بسيارتى».

كانت الحركة فى المدفن قد هدأت قليلا بعد أن انسحبت قوات الشرطة التى كانت تحيط به لترشد القادمين إلى مكانه، وبعد أن انسحب الجنود بطلقاتهم النارية التى صاحبت عملية الدفن.

جلستُ على أحد المقاعد أمام المقبرة ونظرتُ ثانيةً إلى واجهة المدفن الذى انغلق منذ دقائق على الأستاذ فأخذه إلى حيث لن نراه ثانية، إلا ربما فى الأحلام.

لقد عاش «نجيب محفوظ» سنواته الأخيرة مع «الأحلام»، فهل يعود إلينا من خلالها فيلوح من جديد وجهه المشرق دائما بابتسامة الحب والأمل؟ أيمكن أن

يكون هذا الوجه قد اختفى بلا رجعة؟ أم أننا سنلقاه ثانيةً؟ أيمكن أن يكون هناك لقاء بعد الموت، رغم الموت. . أم أن هذا هو الفراق الأبدى؟

فى طريق العودة وضعت شريط الكاسيت الذى يحمل صوته وهو يقص علىّ بعض «الأحلام»، والذى كنت أحتفظ به فى السيارة.

جاءنى صوته بأول حلم اضطر لحفظه كى يمليه على «الحاج صبرى» بعد أن عجزت يده عن كتابته، تلك اليد التى ظلت تكتب إلى أن أعيتها الدنيا وصارت كتابتها تستعصى على القراءة. رأيت وجهه ثانية رغم الموت، وسمعت صوته:

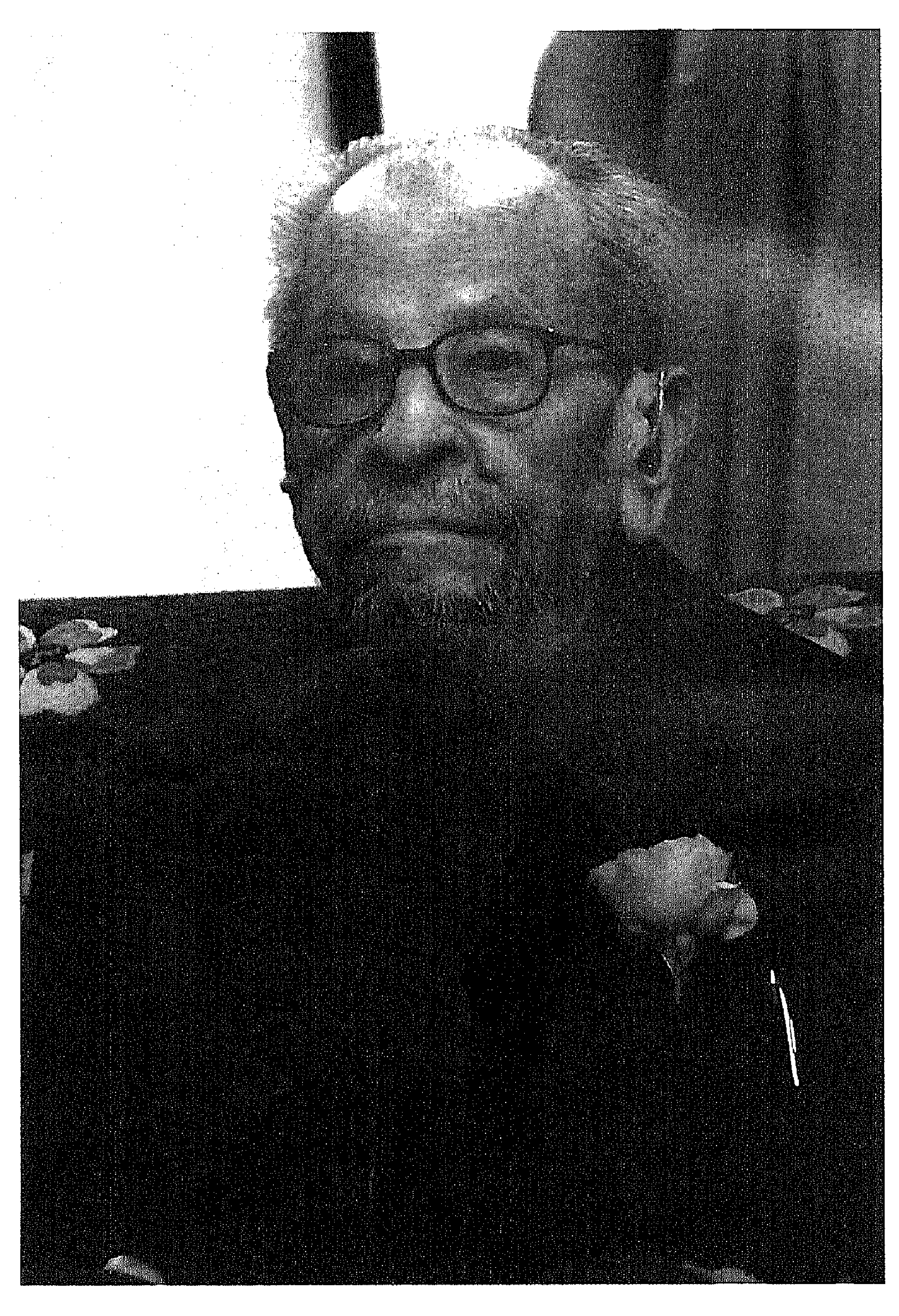
«رأيتنى فى حى العباسية أتجول فى رحاب الذكريات، وتذكرت بصفة خاصة المرحومة «ع»، فاتصلت بتليفونها ودعوتها إلى مقابلتى عند السبيل، وهناك رحبت بها بقلب مشوق، واقترحت عليها أن نقضى سهرتنا فى الفيشاوى كالزمان الأول، وعندما بلغنا المقهى خف إلينا المرحوم المعلم القديم ورحب بنا، غير أنه عتب على المرحومة «ع» طول غيابها، فقالت إن الذى منعها عن الحضور الموت، فلم يقبل هذا الاعتذار، وقال إن الموت لا يستطيع أن يفرق بين الأحبَّة».

أعدتُ الشريط قليلا، فقال لى بصوته مرة أخرى:

«الموت لا يستطيع أن يفرق بين الأحبَّة..»!



محطـات



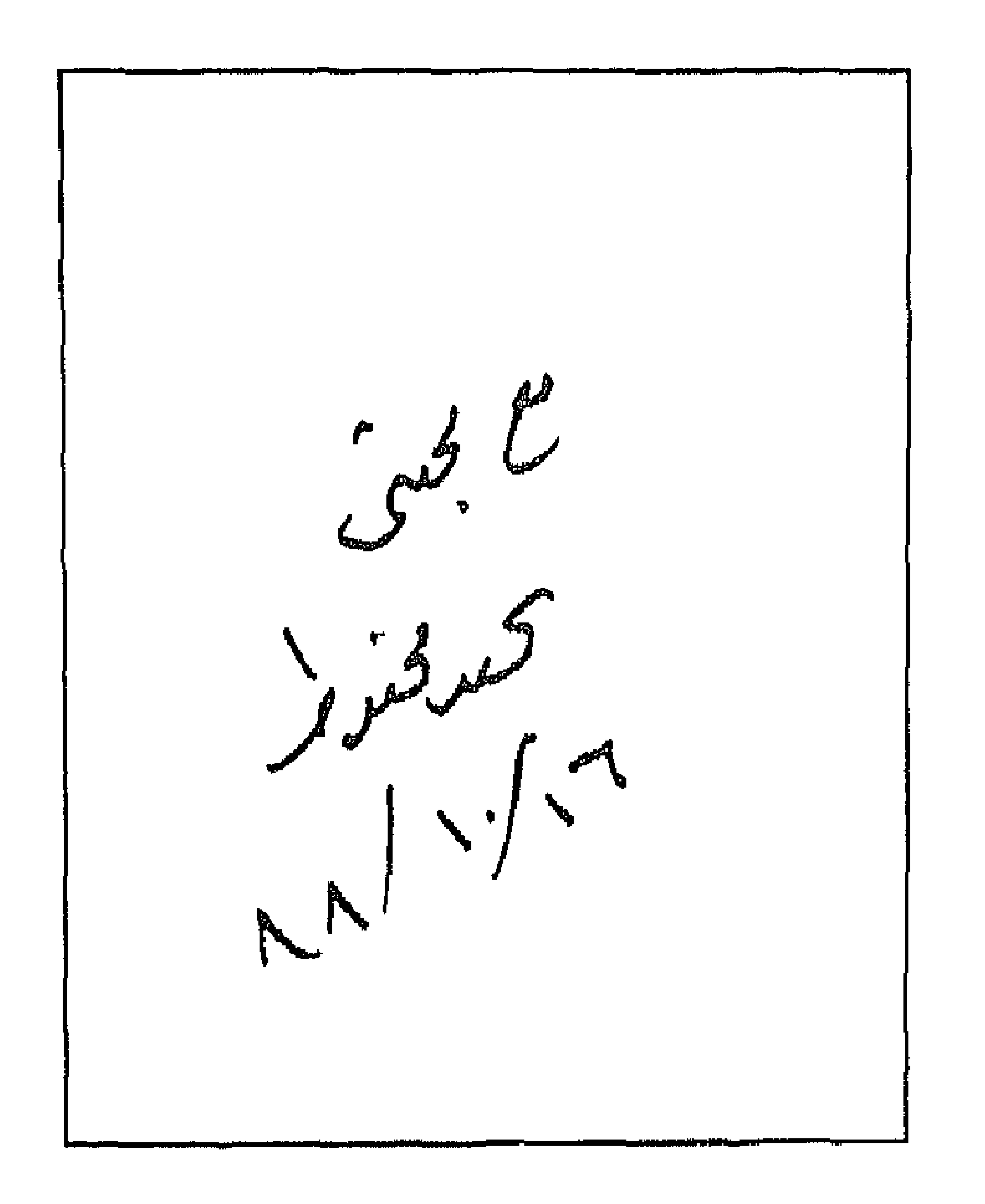
فى آخر صورة التقطت له فى عيد ميلاده الرابع والتسعين، وقد وضع
له أحد أحبائه وردة فى سترته.



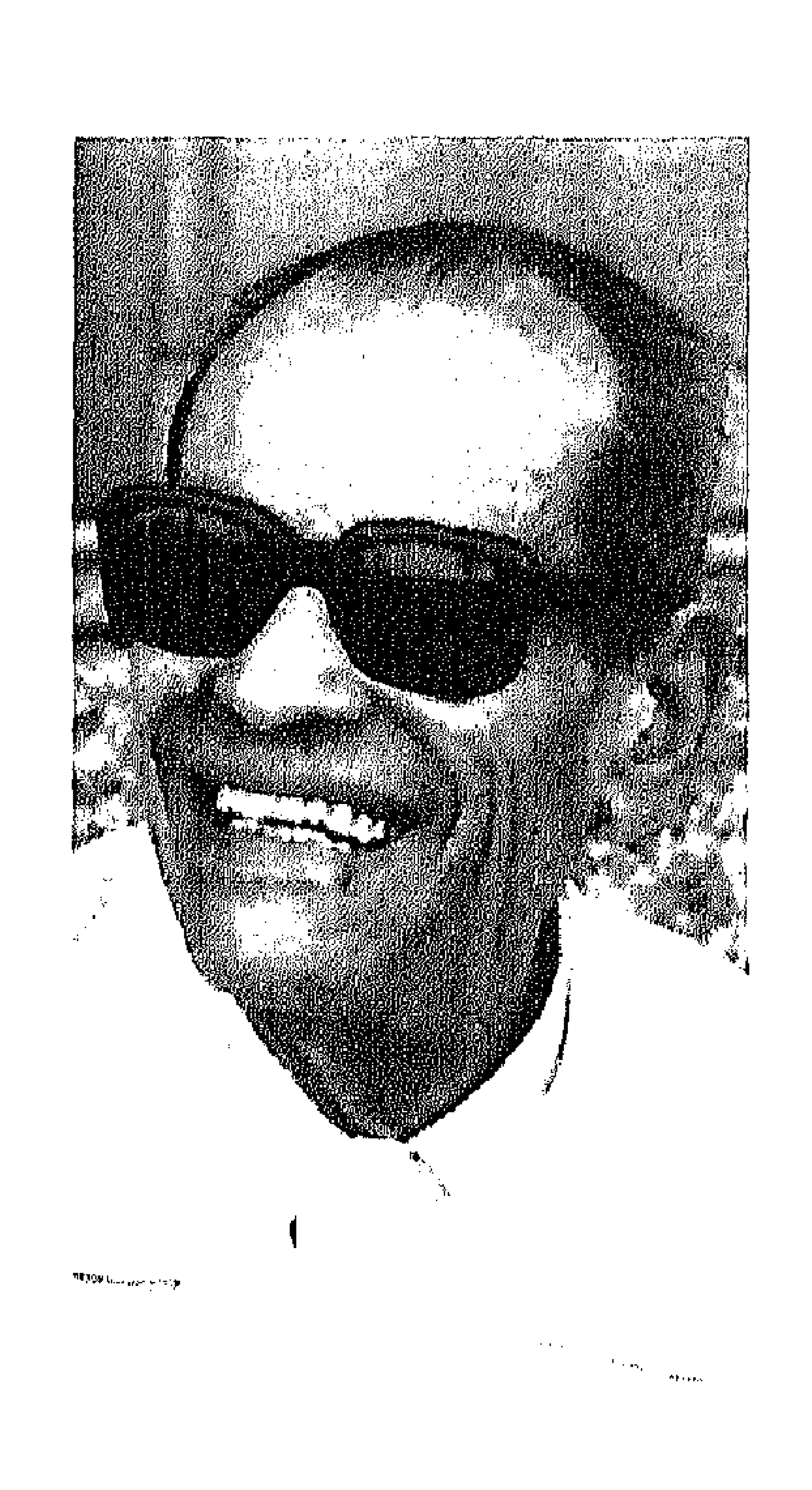
الصورة التى التقطتها عدسة المصور الفرنسى الكبير
"جيل بيران" .



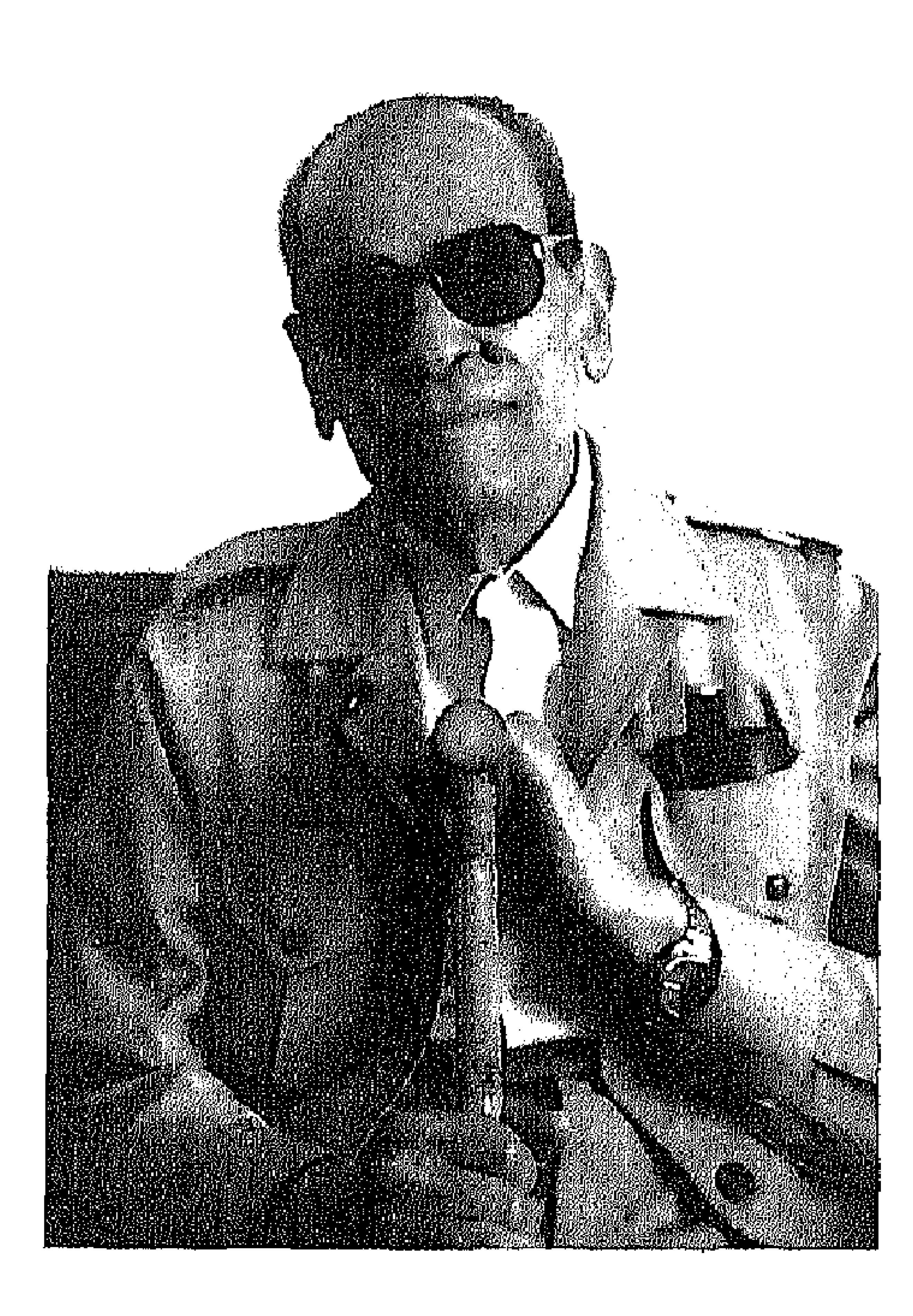
صورة خاصة لمحفوظ من حافظة ابنته فاطمة (فاتن).



إهداء الأستاذ لابنته على صورة تحتفظ بها فى حافظتها.



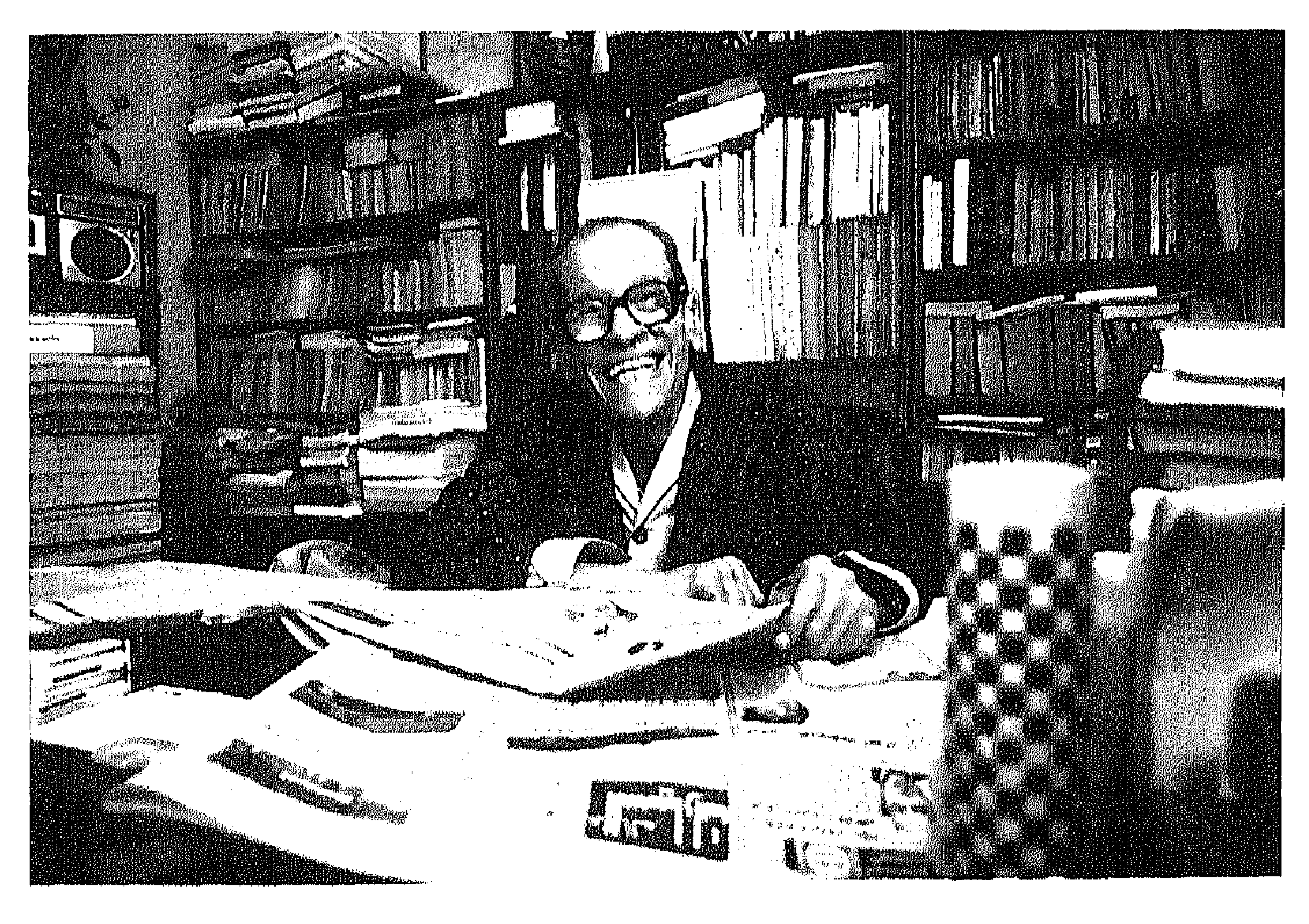
محفوظ عام ١٩٧٨.



بورتريه لمحفوظ. بعدسة أنطوان ألبير



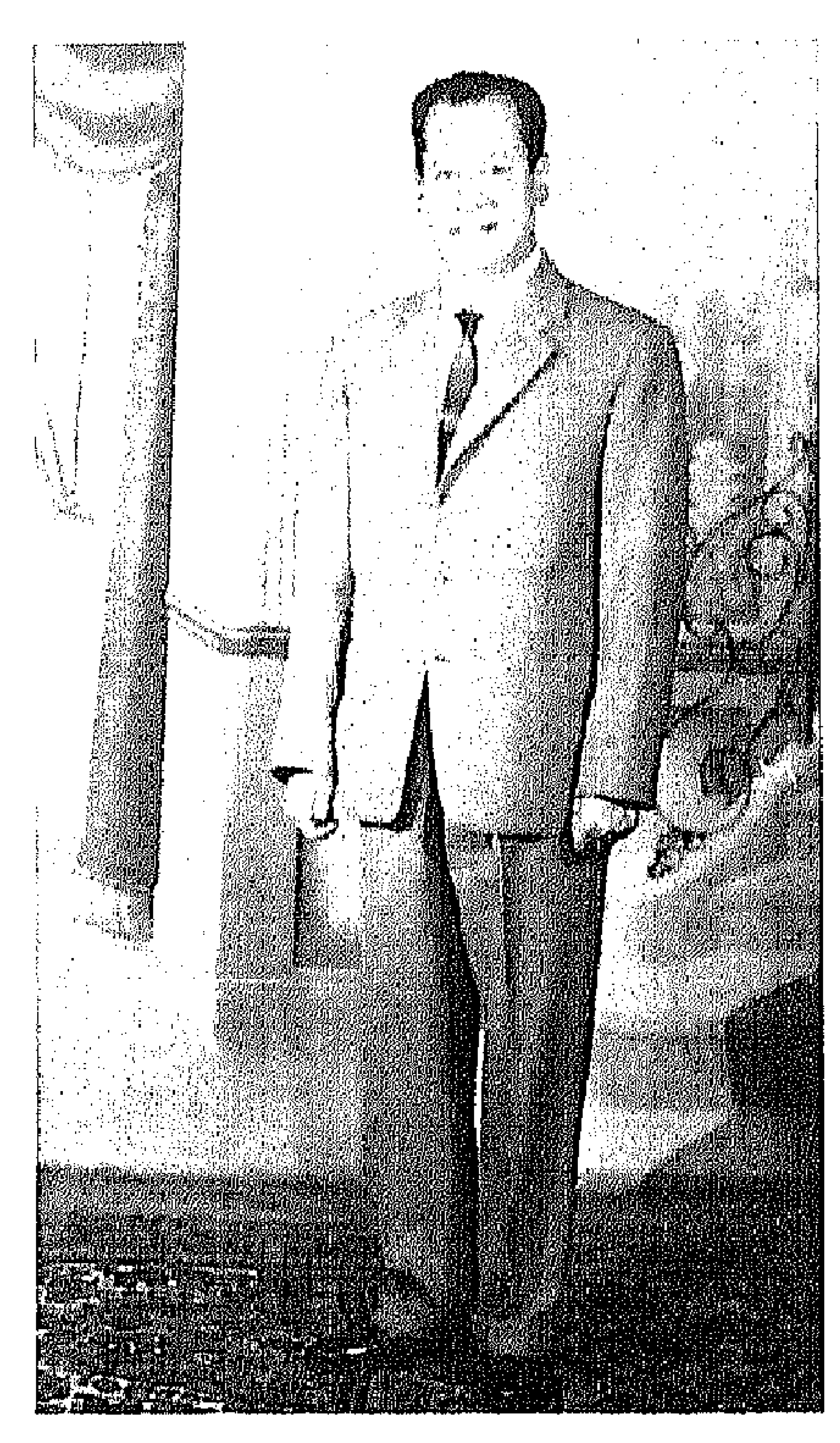
محفوظ فى مكتبه بـ "الأهرام" عام ١٩٨٨. بعدسة أنطوان ألبير.



محفوظ فى مكتبه بالمنزل قبل حادث الاعتداء عام ١٩٩٤.



أول صورة أهداها محفوظ للسيدة "عطية الله"
عند زواجهما عام ١٩٥٤



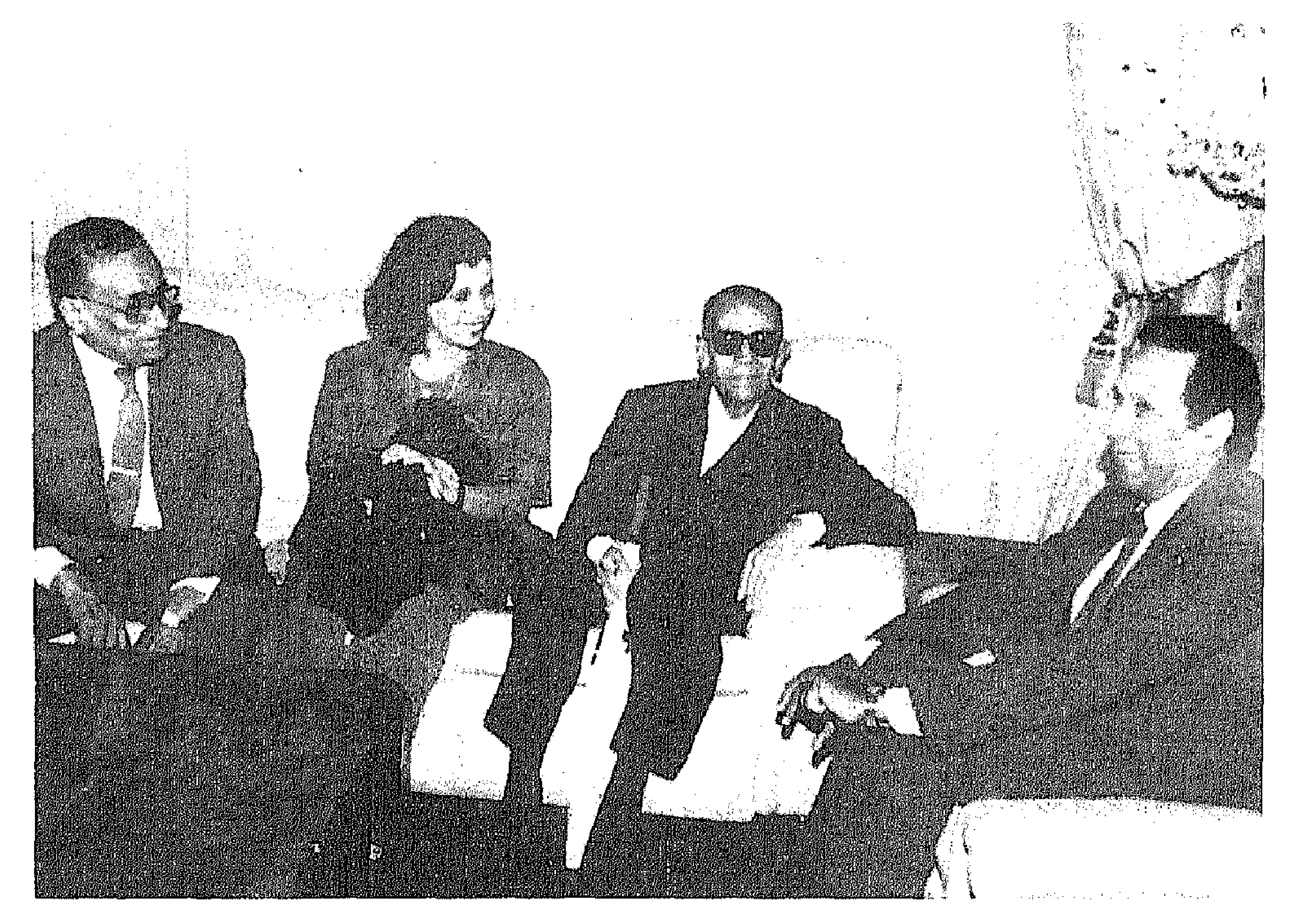
صورة خاصة من أرشيف
زوجته السيدة "عطية الله".



نجيب محفوظ مع والدته وابن شقيقه محمد إبراهيم
في بيت العباسية في بداية الثلاثينات.



محفوظ جالسا على الشاطئ بكامل ملابسه وقد خلع الطربوش ووضعه على حجره،
وإلى جواره يجلس شقيقه إبراهيم رئيس ديوان المحاسبة، ثم ابن شقيقه محمد إبراهيم،
وقد كتب على ظهر الصورة: بلاج سبورتنج الساعة ٢ ظهراً يوم ١١ أغسطس ١٩٣٥.



اللواء عبد العزيز بدر - المدير الأسبق لمطار القاهرة - يرحب بنجيب محفوظ يوم سفره إلى لندن مع ابنته فاطمة لإجراء عملية الشريان الأورطى فى شهر أكتوبر عام ١٩٩١. وكان فى وداعه ابن شقيقته المهندس محمود الكردى.



أم كلثوم وفاطمة تداعبان والدهما فى إحدى الحدائق فى بداية السبعينات.



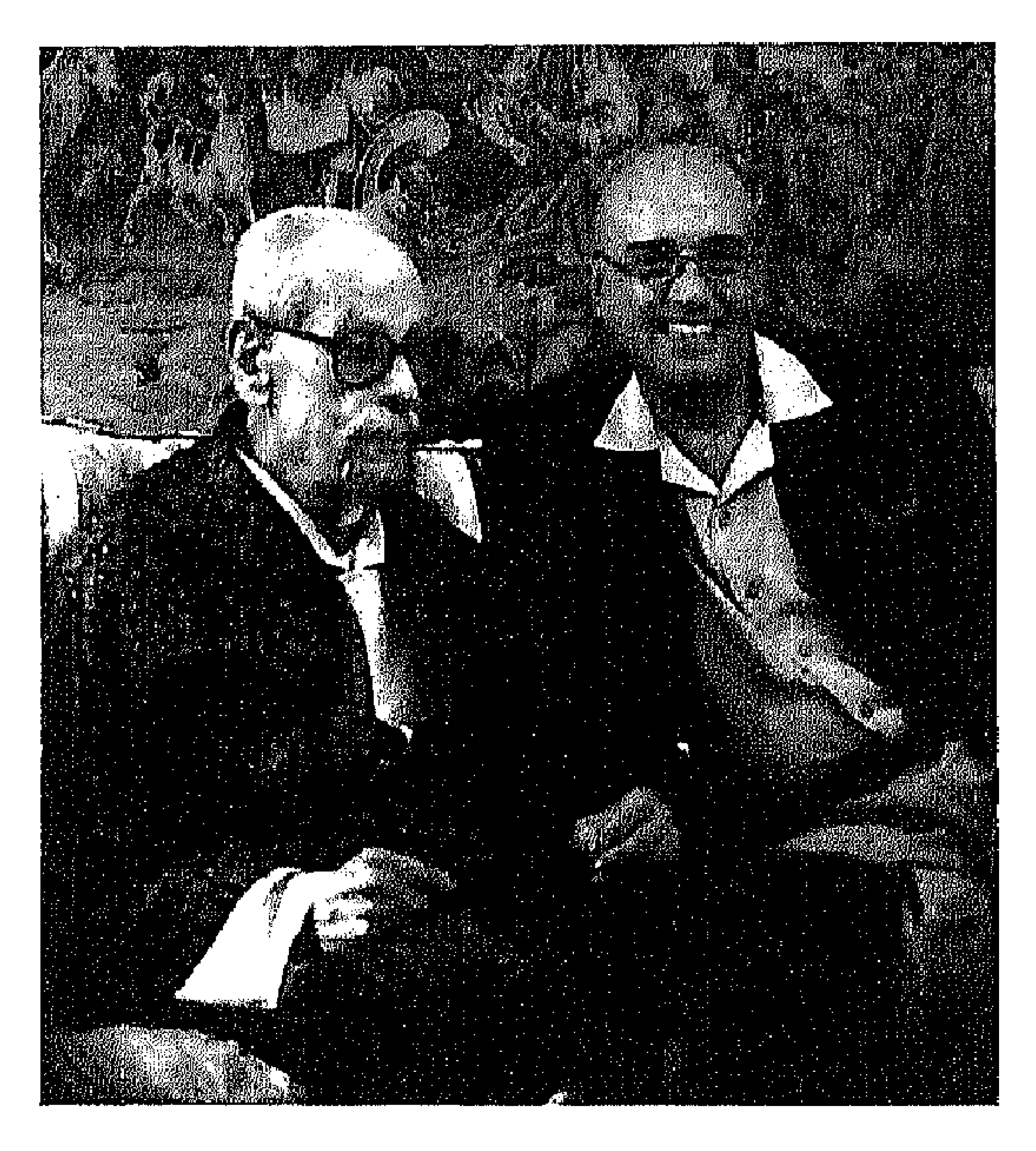
الرئيس مبارك وقد قلد محفوظًا قلادة النيل عام ١٩٨٨.



محفوظ وسط كتبه عام ١٩٩٦.



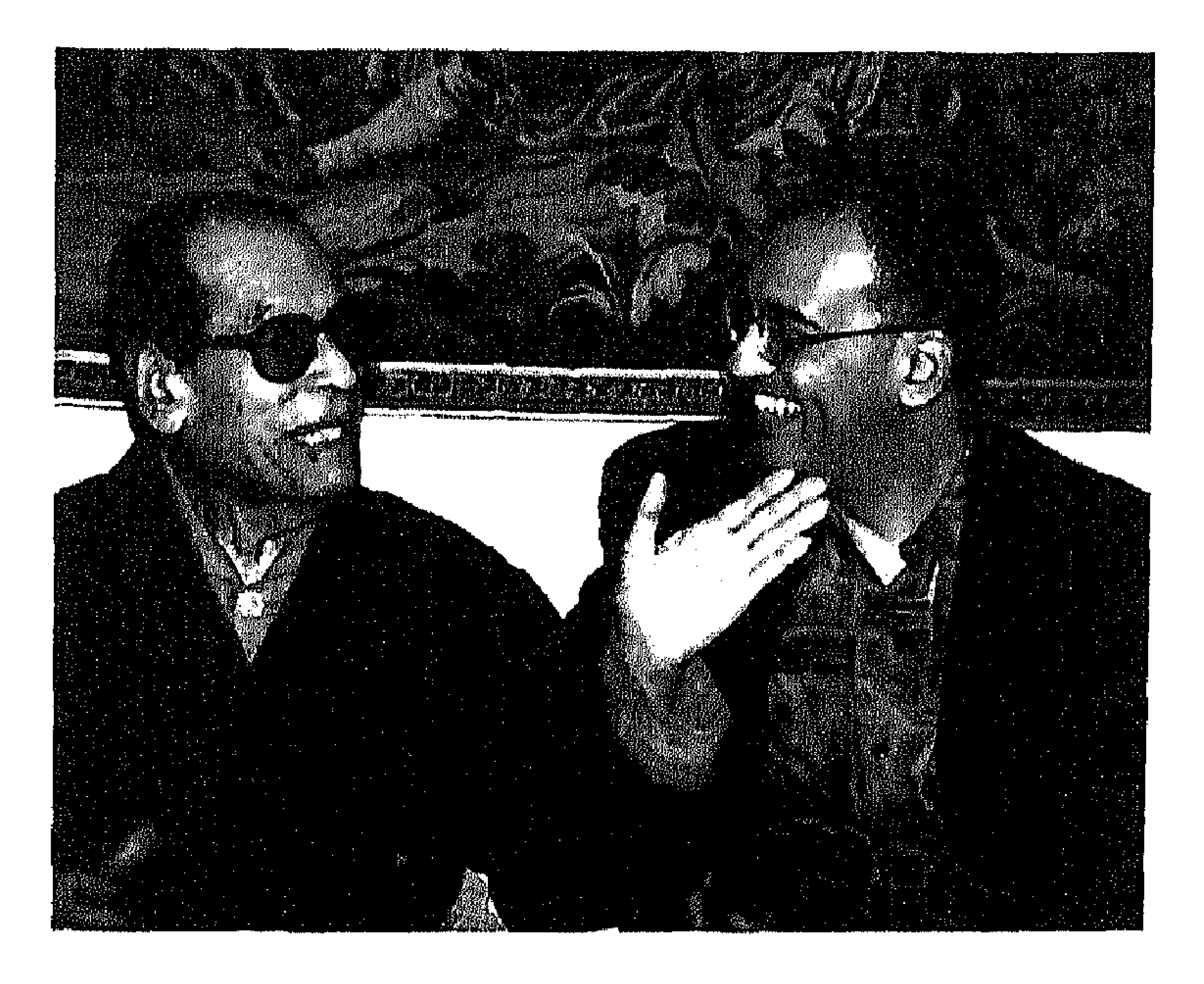
فى مكتبه بـ «الأهرام» لم يجلس قَطّ على مكتب توفيق الحكيم.



مع محمد سلماوى فى صيف عام ٢٠٠٣.



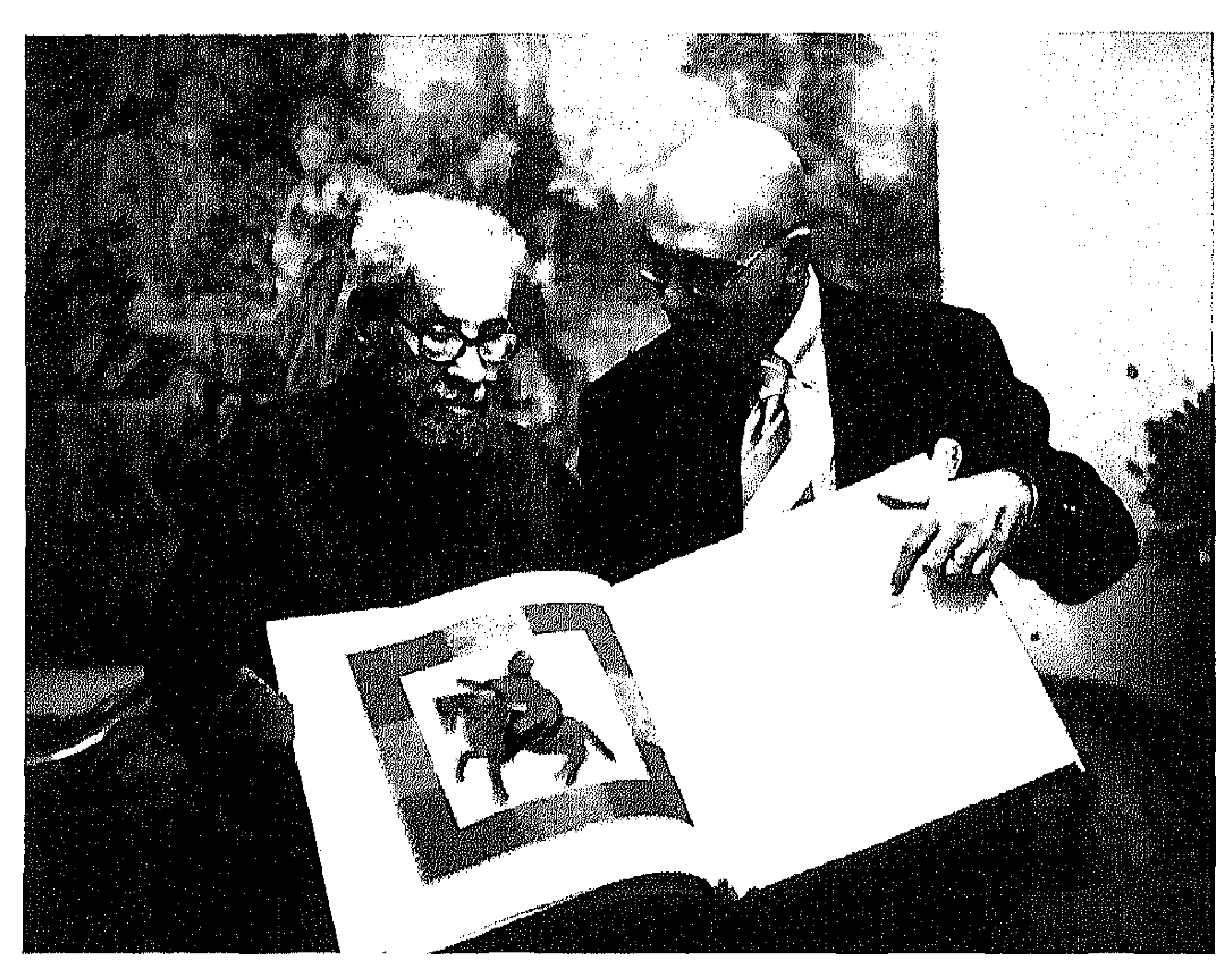
مع محمد سلماوى عام ١٩٩٥.



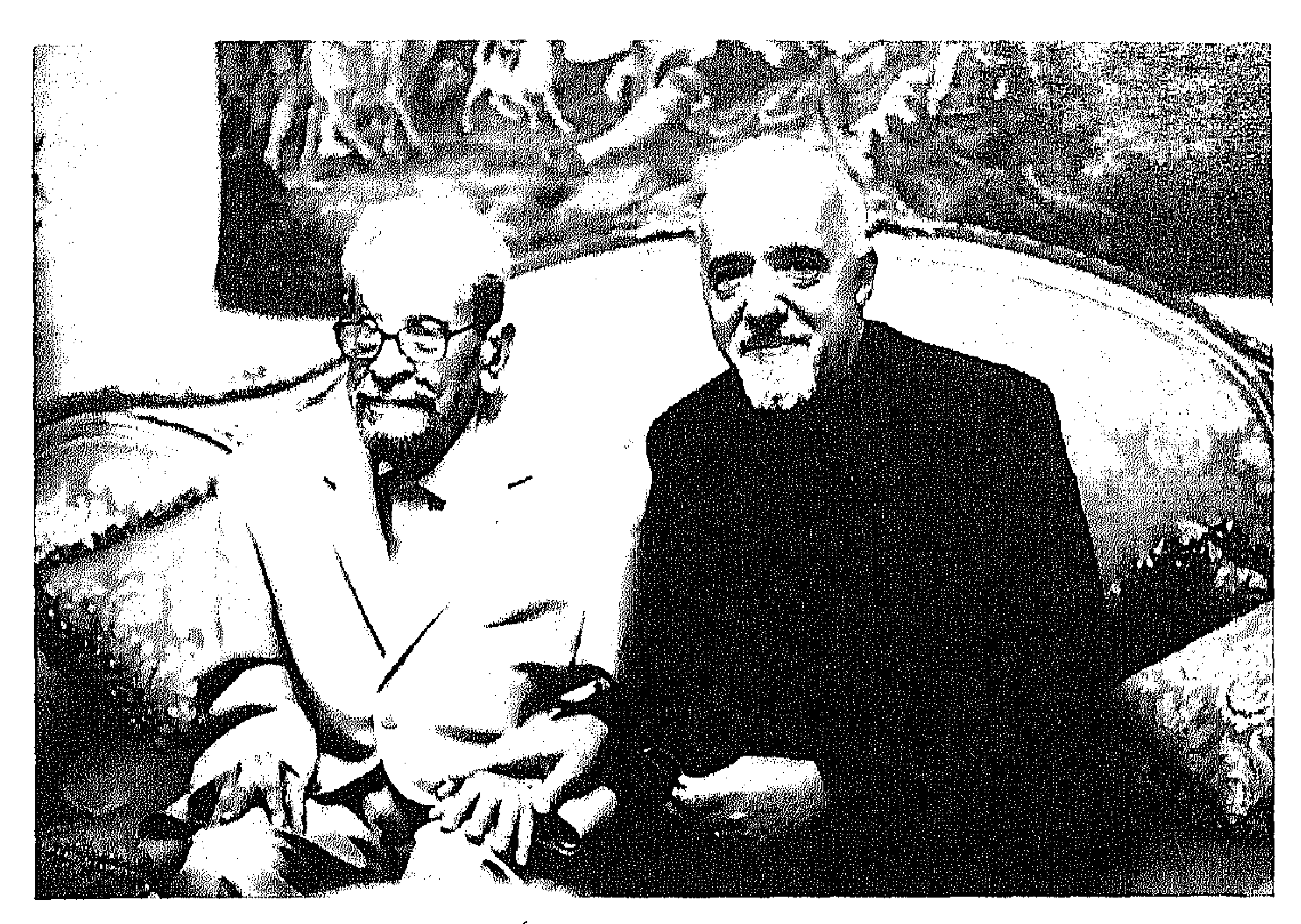
مع محمد سلماوى عام ١٩٩٥.



محفوظ مع محمد سلماوى عام ٢٠٠٣.



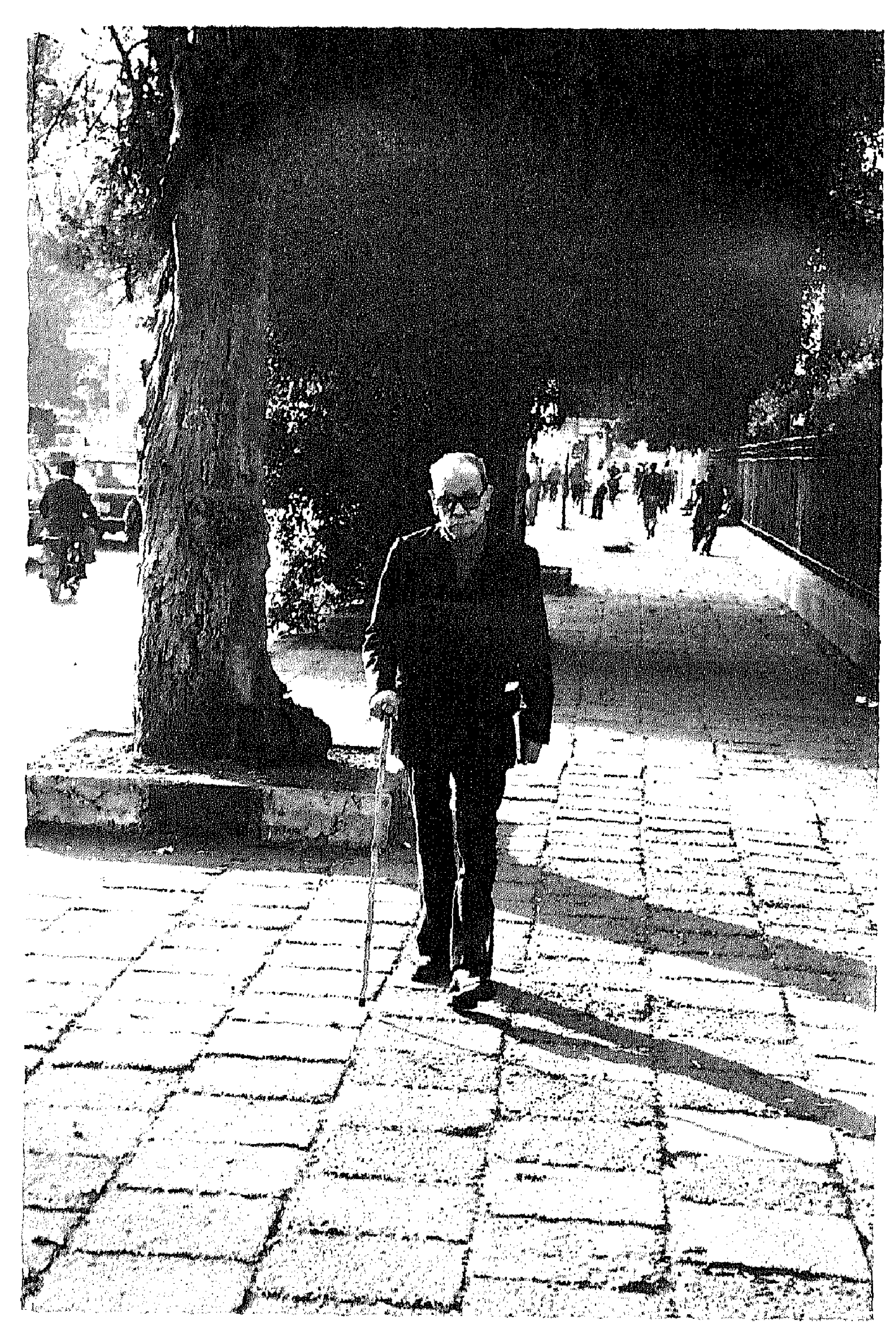
طبعة فاخرة من كتاب «ليالى ألف ليلة» صدرت فى نيويورك بلوحات للفنانة نازلى مدكور عام ٢٠٠٤.



الكاتب العالمى باولو كويللو يوم قَبَّل يد نجيب محفوظ



الحاج صبرى يقرأ له جرائد الصباح.



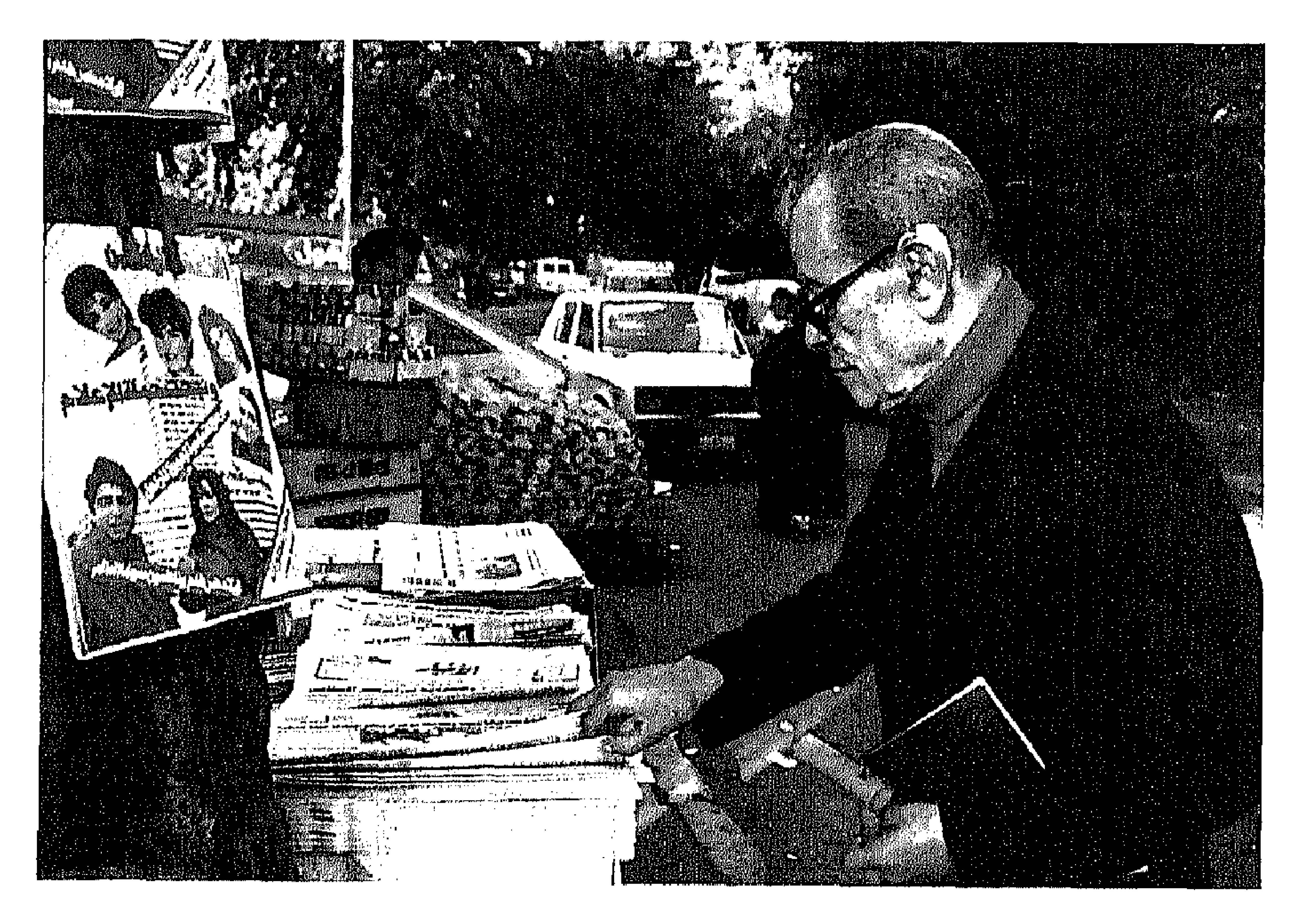
خط سيره اليومى من منزله بالعجوزة إلى ميدان التحرير.



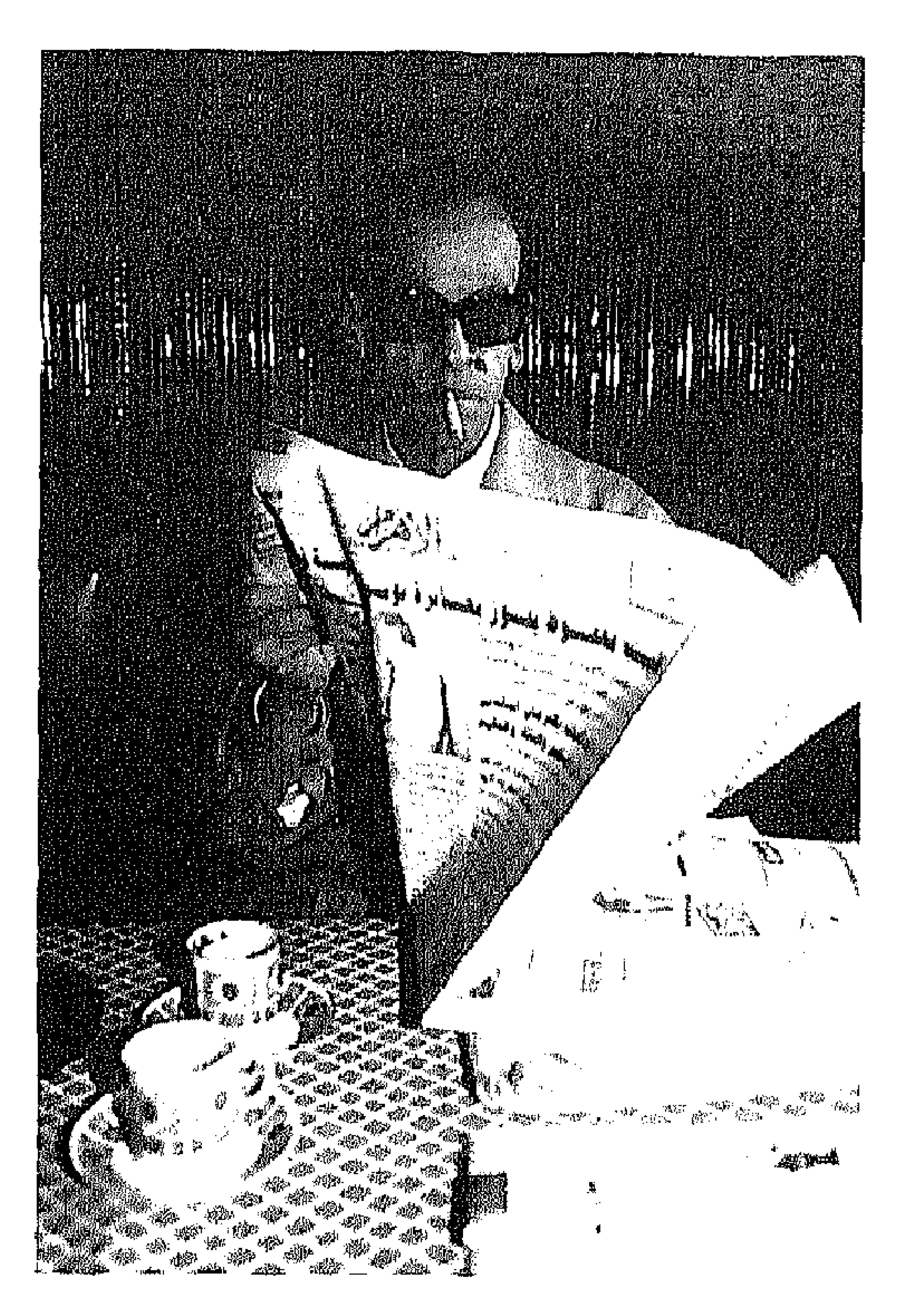
حتى فى أيام الشتاء والمطر كان يمشى كل صباح.



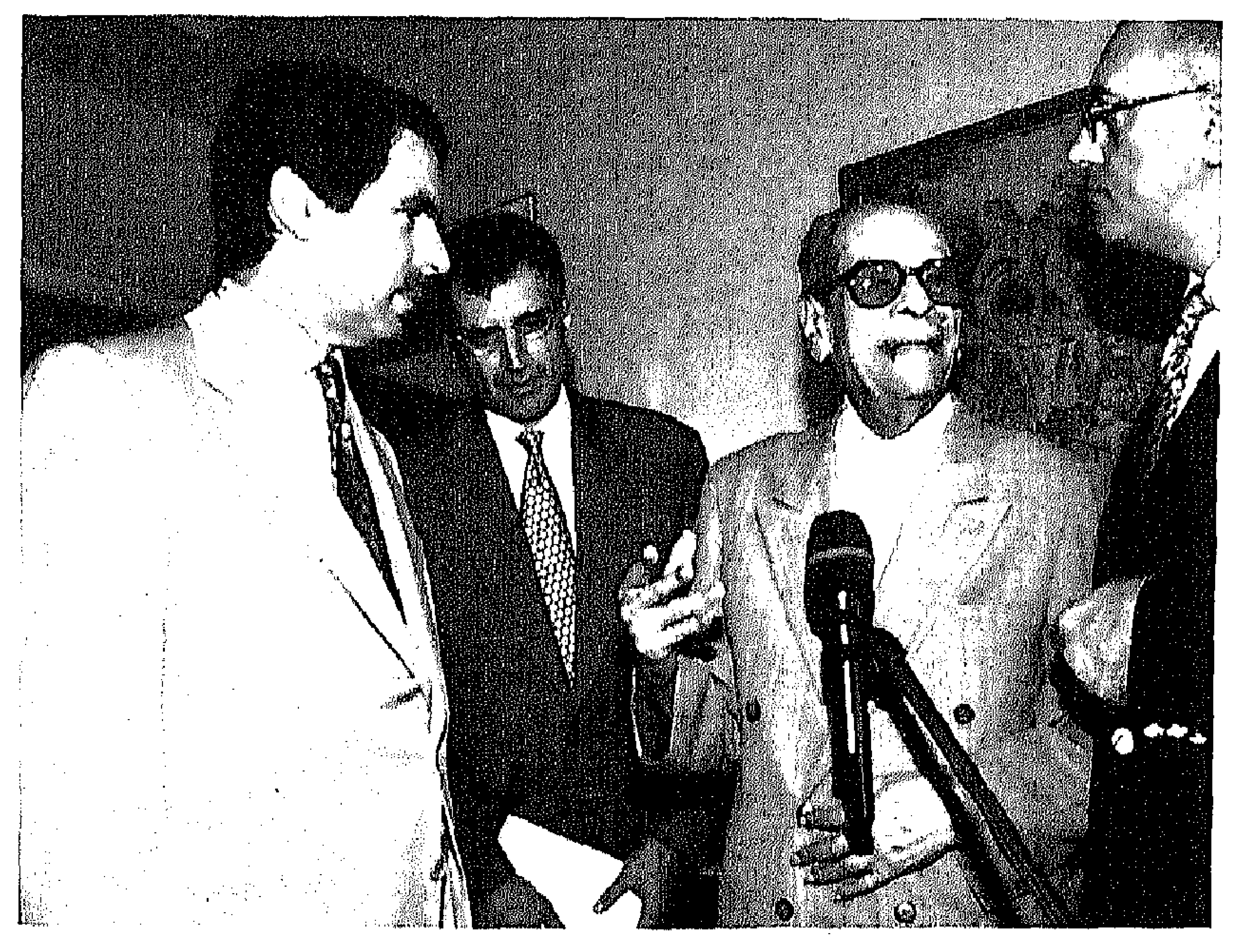
كان المارة يستوقفونه كى يتحدثوا إليه.



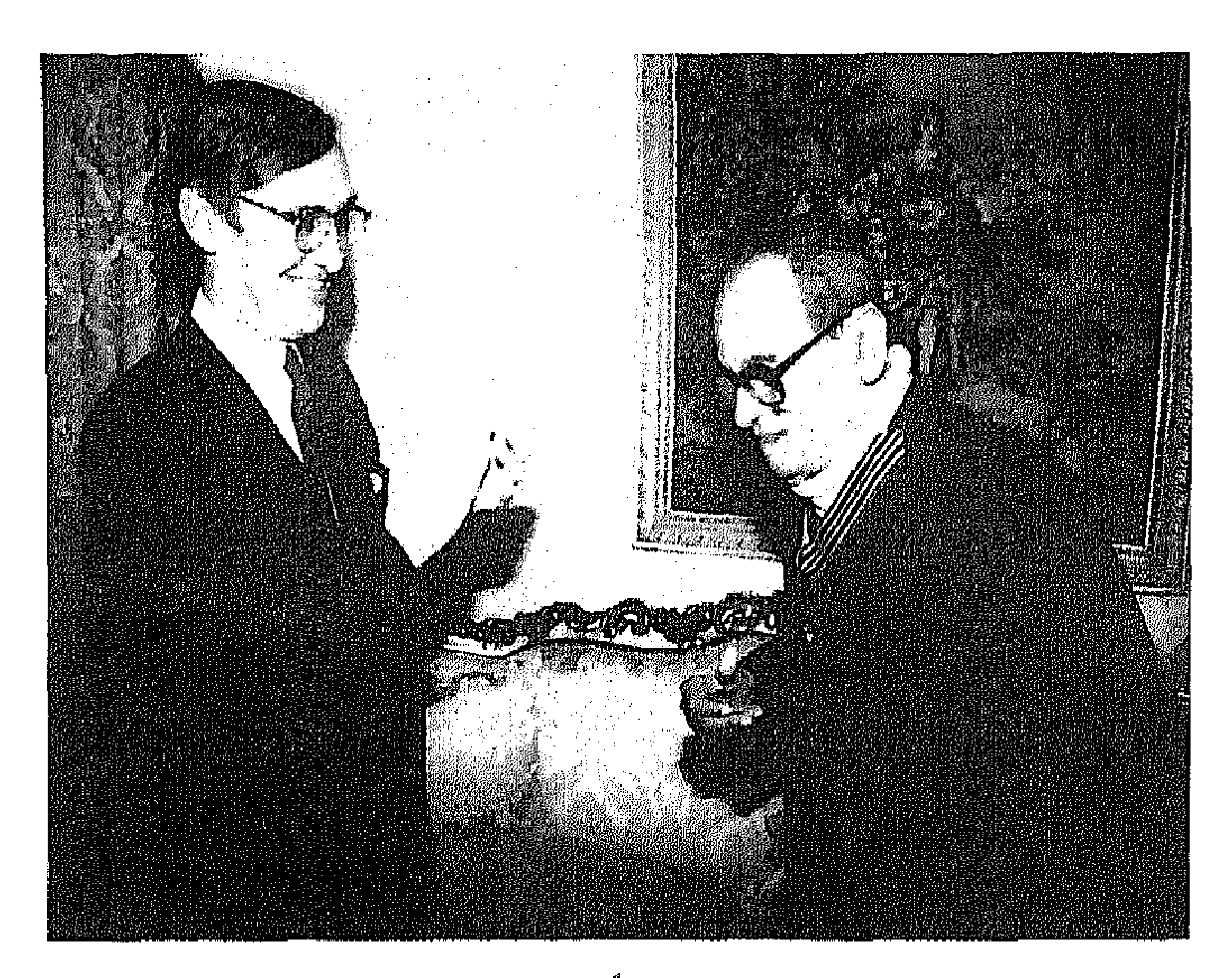
كان يشترى الصحف فى طريقه كل صباح إلى
كافتيريا «على بابا».



الصحف والقهوة والسيجارة، كل صباح
فى كافتيريا «على بابا»



رئيس الوزراء الإسبانى السابق "خوسيه ماريا أثنار"
يوم تسليم الوسام لمحفوظ فى منزله.



السفير الفرنسى يقلد محفوظًا وسام الآداب والفنون الذى منحه له الرئيس ميتران.



السفير الإيطالى يسلم محفوظًا جائزة البحر الأبيض المتوسط.



الزوار من جميع أنحاء العالم يتوافدون على منزل محفوظ ومكتبه طالبين توقيعه على كتبه.



السفير اليونانى يسلم محفوظًا جائزة كفافى.



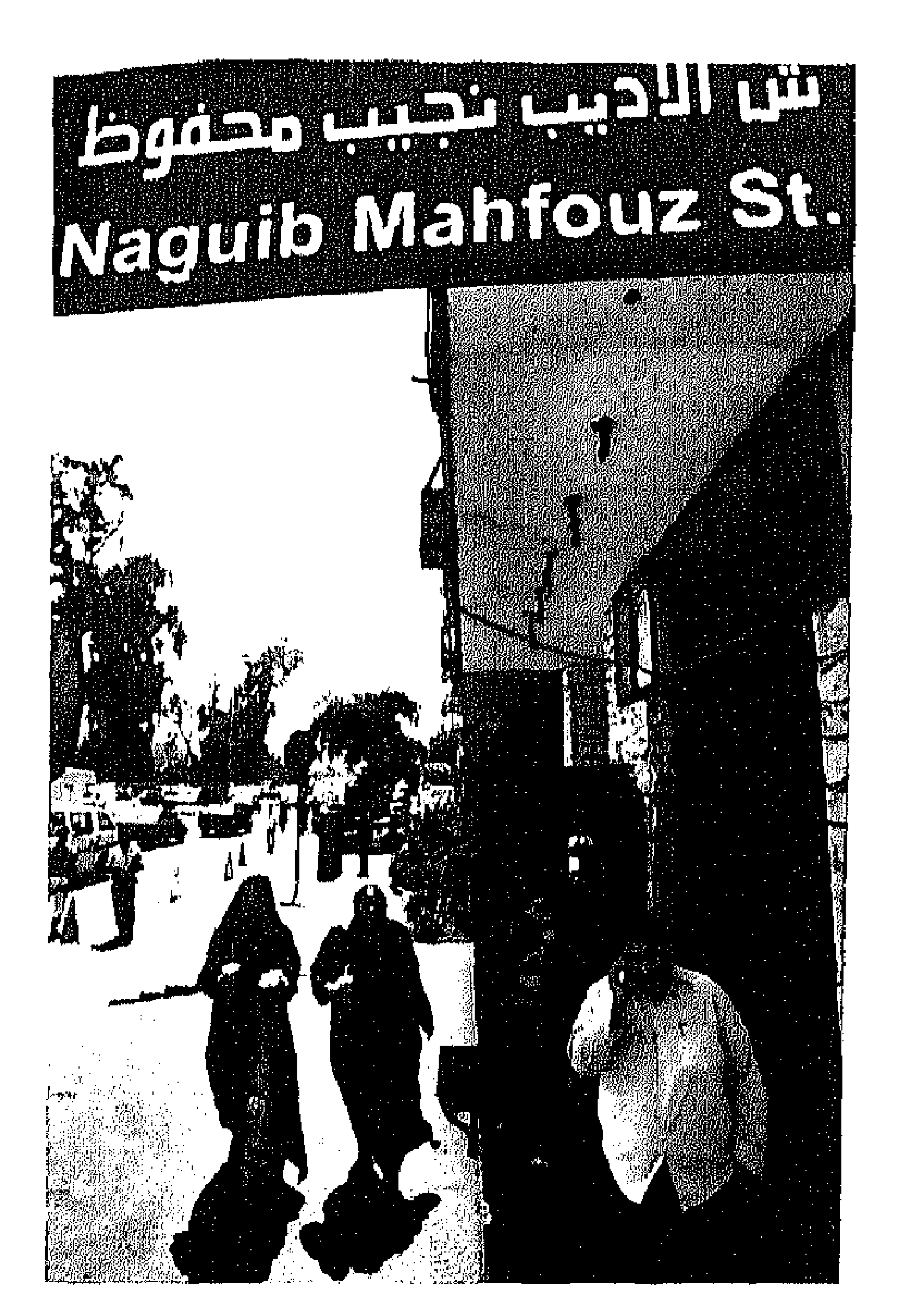
المَثَّال سيد على يعرض على محفوظ ماكيت التمثال
الذى نفذه له.



تمثال نجيب محفوظ فى الميدان الذى أصبح يحمل اسمه.



محمد سلماوى مع السيدة عطية الله
أمام التمثال.



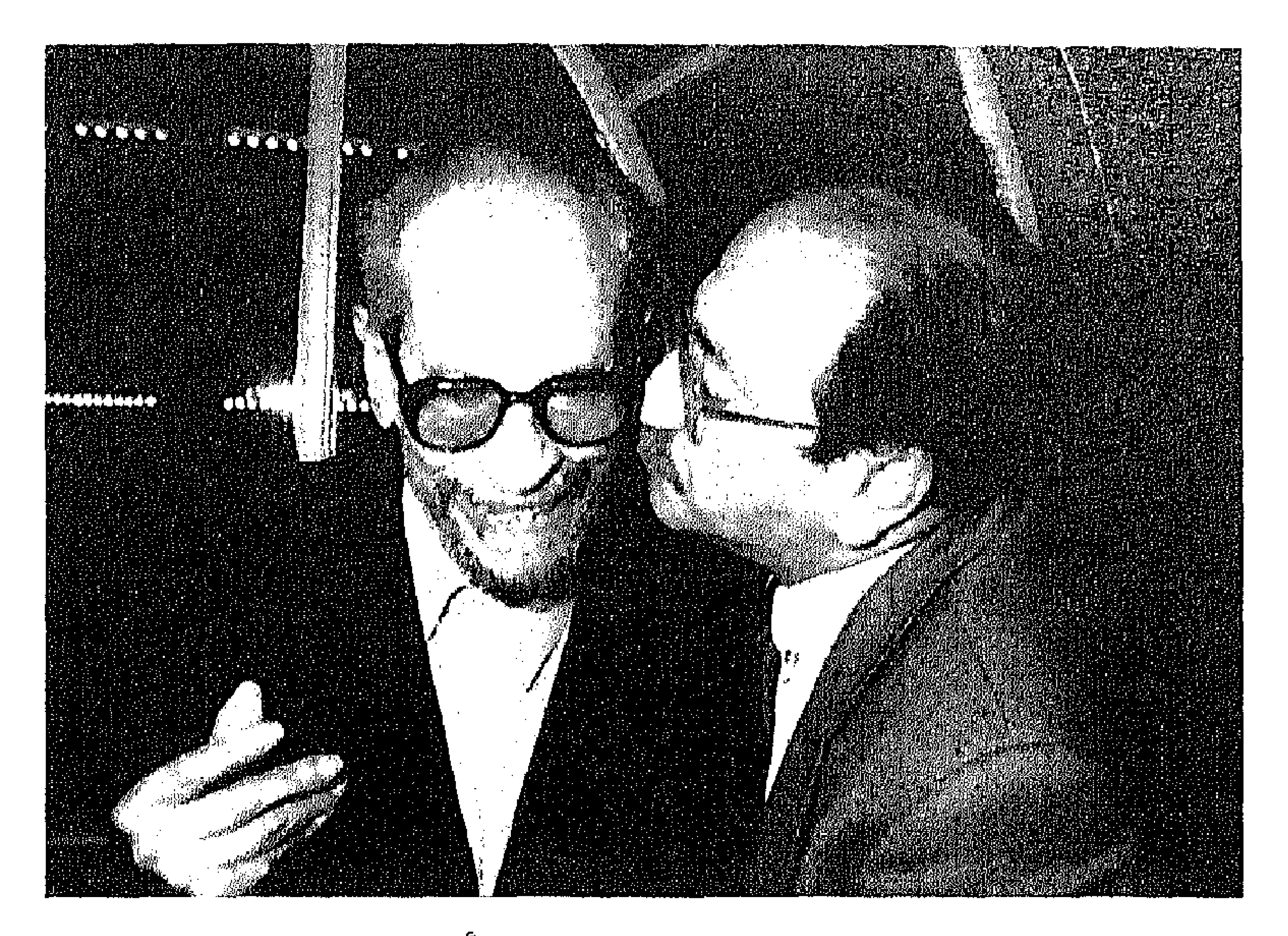
الشارع الجانبى الذى يقع منزل
الأستاذ على ناصيته حاملاً اسمه.



مع أسرة مسرحية «الجنزير»، والذين طلب أن يراهم بعد أن رويت له قصة المسرحية.



مع محمد سلماوى ونور الشريف.



دريد لحام يطبع قبلة على وجه الأستاذ بمناسبة عيد ميلاده الـ ٩٣.



جلسة يوم الثلاثاء فى «فرح بوت» مع الأبنودى وليلى علوى وزكى سالم ويوسف القعيد وآخرين.

حكمة الموت

٢٨/٨/٥

أقصوصة مصرية
بقلم الأديب نجيب محفوظ

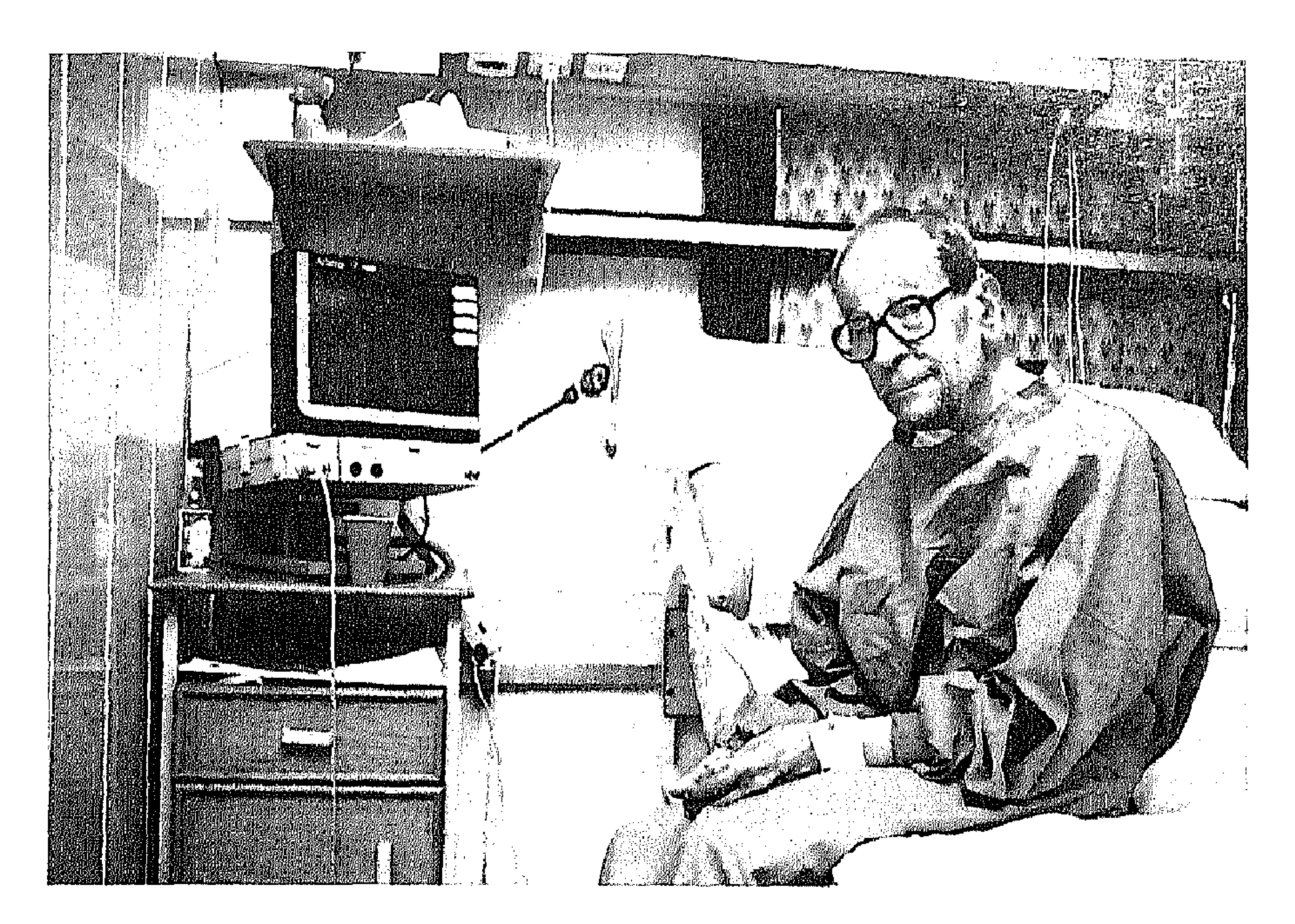
مضى شهر تقريباً وحضرة محمد أفندي عبد القوى يشعر بتوعك المزاج . آيته همود فى الجسم وثقل فى الدماغ ووهن — يشتد حيناً ويخف أحياناً — فى الساقين ، وقد سكت عن حالته الطارئة طوال الشهر وهو يعالجها بكثرة العمل تارة وبإدمان السهر تارة أخرى؛ وفملاطلب إجازة قصيرة وكف عن السهر راجياً أن تعود صحته إلى حالتها الطبيعية ... وانتظر على هذا الرجاء أياماً وما تزداد حالته إلا سوءاً حتى لم ير بداً من استشارة طبيب، وقال له الطبيب — بعد أن فحصه بدقة وعناية — إنه مصاب بضغط الدم وأشار عليه بالتزام الراحة أياماً وبالاقتصار على الطعام المسلوق والفواكه ، والامتناع عن تناول اللحوم الحمراء وتعاطى الخمور ثم وصف له الدواء اللازم ...

ورجع محمد أفندي من عيادة الطبيب خائفاً مذعوراً كثير الهم والفكر ... وقد يكون هذا — فى ظاهره على الأقل — غريباً لأن الضغط لم يكن شديداً، ولأنه من الأمراض التى يمكن تلافى خطرها بالعناية والحرص فى اختيار الطعام والشراب، ولأن محمد أفندى شاب فى الخامسة والثلاثين فلا ينذره الضغط بما ينذر به ذوى الستين أو السبعين، والأعجب من هذا كله أنه لم يكن غافلا عن هذه الحقائق ولكنه فى الواقع لم يخش المرض فى ذاته قدر ما خشى التاريخ أعنى تاريخ أسرته . فهو يذكر أن أباه أصيب بالضغط وهو فى مثل عمره تقريباً ويذكر أنه لم يقاومه طويلا فساءت حالته وأصابه الشلل فقضى فى عنفوان شبابه وقوته . ولم يكن موت أبيه فى عنفوان شبابه حادثاً غريباً فى أسرته، فهكذا قضى جده من قبل ولم يجاوز الأربعين ... إن ذاكرته لا تحفظ له من حياة والده إلا آثاراً خفيفة لأنه توفى وهو — أى محمد — غلام صغير ، ولكن صورة المرحوم المعلقة بحجرة الاستقبال أثر باق يشهد بالشبه العظيم بين الابن وأبيه ، وإن الناظر إلى الصورة ليقتنع بهذه الحقيقة التى تدل على أثر الوراثة . فالجبهة الربعة والعينان المستطيلتان المستديرتان ، والأنف الكبير المائل إلى الفطس ، والفم العريض المظلل بالشارب الغليظ، والوجه الممتلئ والجسم البدين... جميع هذه معالم مكررة بين صورة الراحل والشخص الحى كالأصل وصورته، وكأن صاحب الصورة هو محمد نفسه فى ثياب بلدية .. الجبة والقفطان والعمامة ..

ياله من شبه عجيب ! ولم يكن غافلا عنه ولكن خيل إليه عندئذ أنه يفطن إليه لأول مرة فى حياته أو أنه اكتشف فيه مغزى كان عنه خافياً ...

ولا مراء فى أن الشبه بينهما لم يقف عند حد الشكل فطالما سمع والدته تنوه بأوجه الاتفاق بينه وبين أبيه فى الخلق والطبع فى المناسبات المختلفة ... فكان إذا احتد وغضب لأتفه الأسباب تنهدت وقالت : « رحم الله أباك ... ليته أورثك غير هذا الطبع طبعاً هادئاً » ... أو إذا جلس إلى الحاكى ينصت فى انتباه ويهز رأسه فى طرب قالت وهى تبتسم له : « ابن حلال يا بنى ... » أو إذا رجع

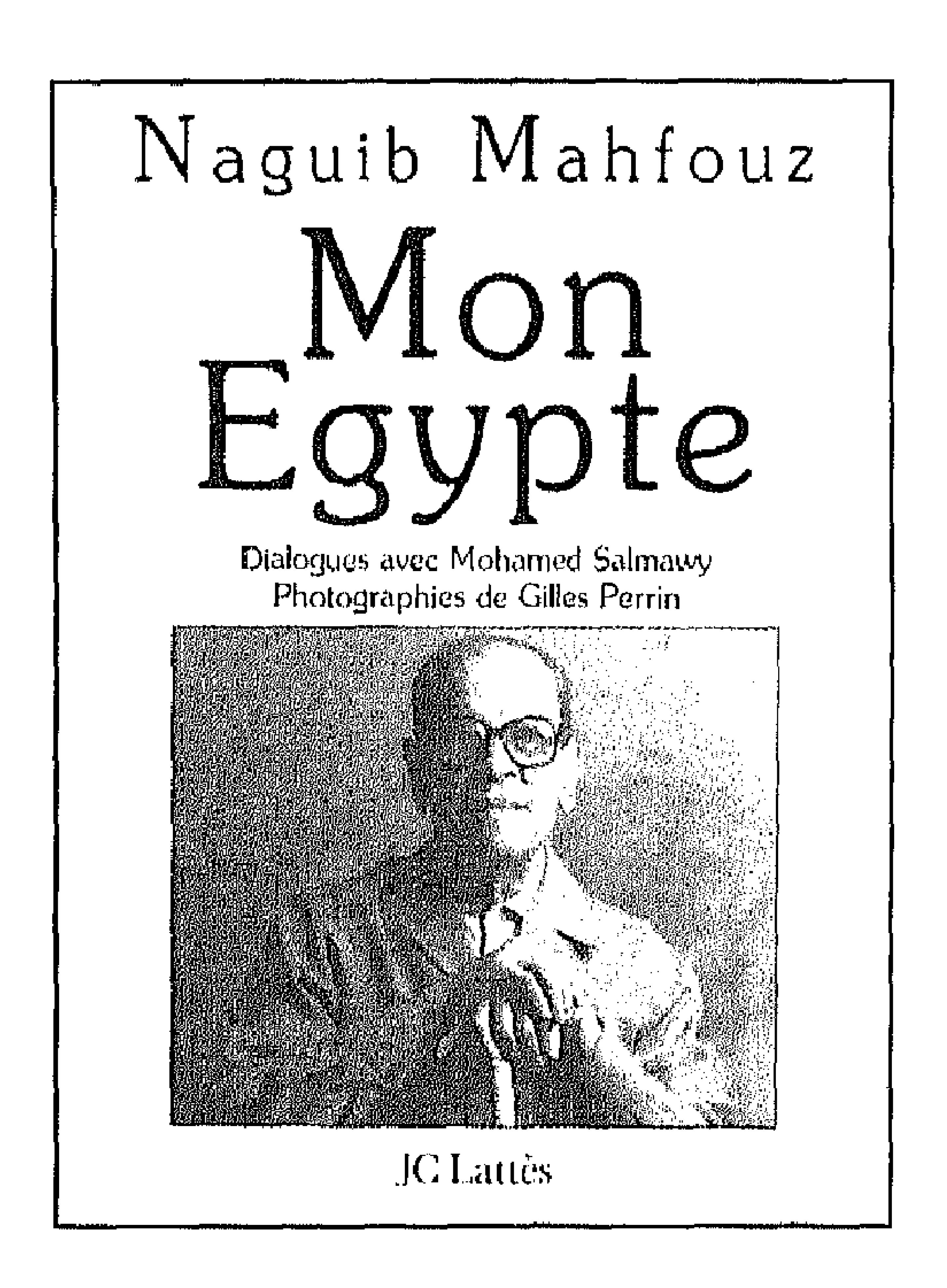
قصة «حكمة الموت» التى نشرها محفوظ عام ١٩٣٨.



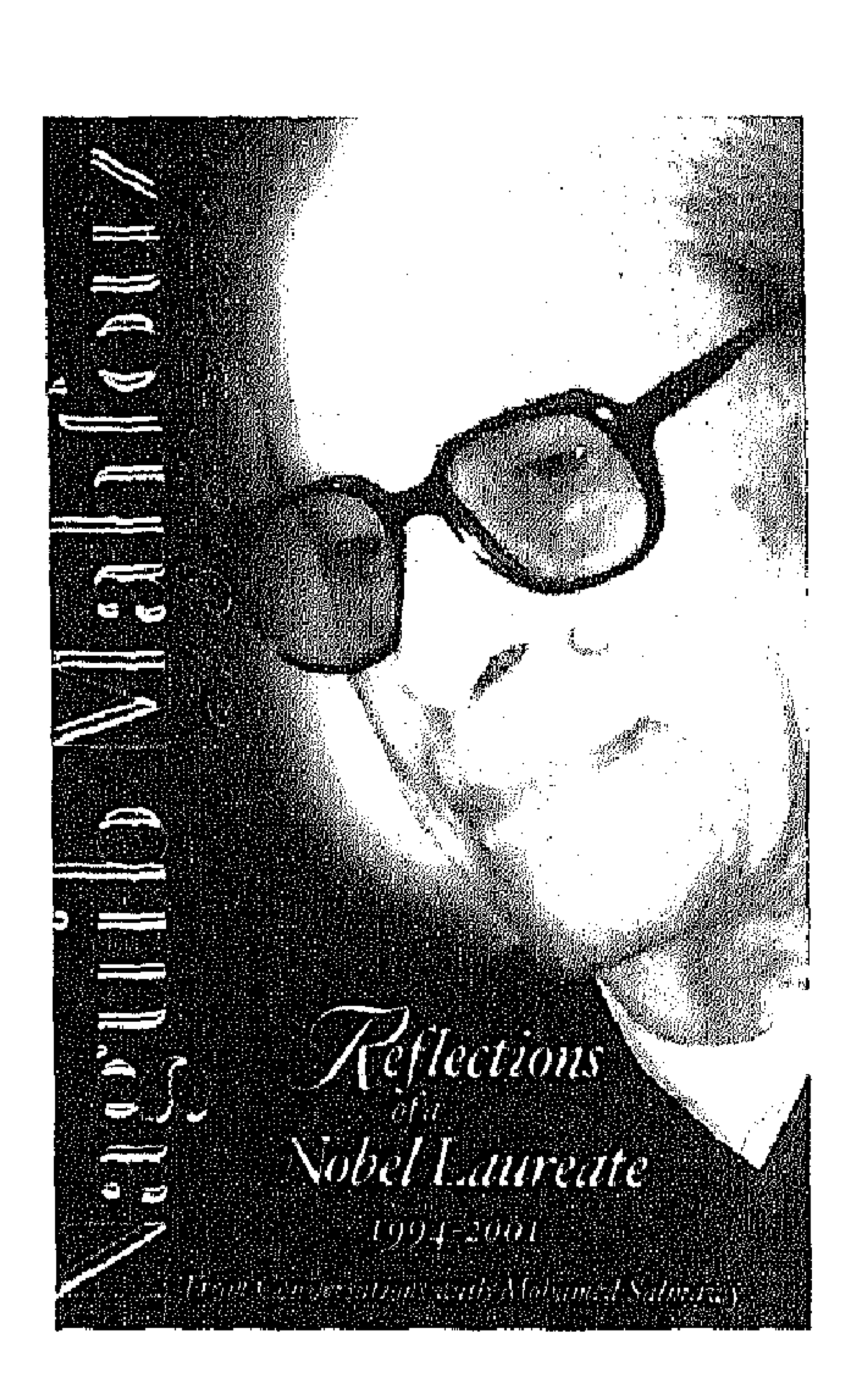
فى المستشفى عام ١٩٩٤.



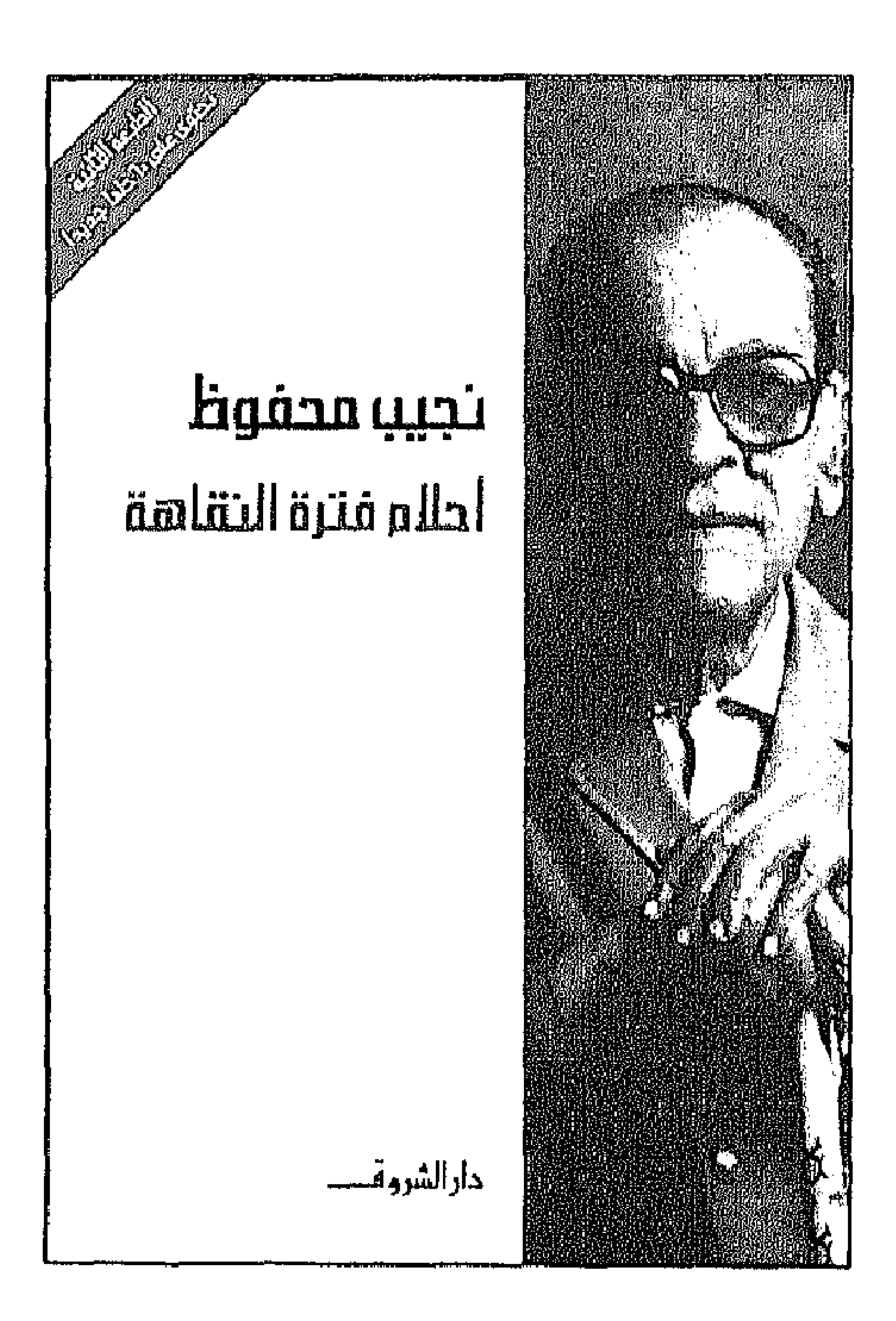
هالة ممرضة العناية المركزة تعطى محفوظًا حقنة
بعد حادث عام ١٩٩٤.



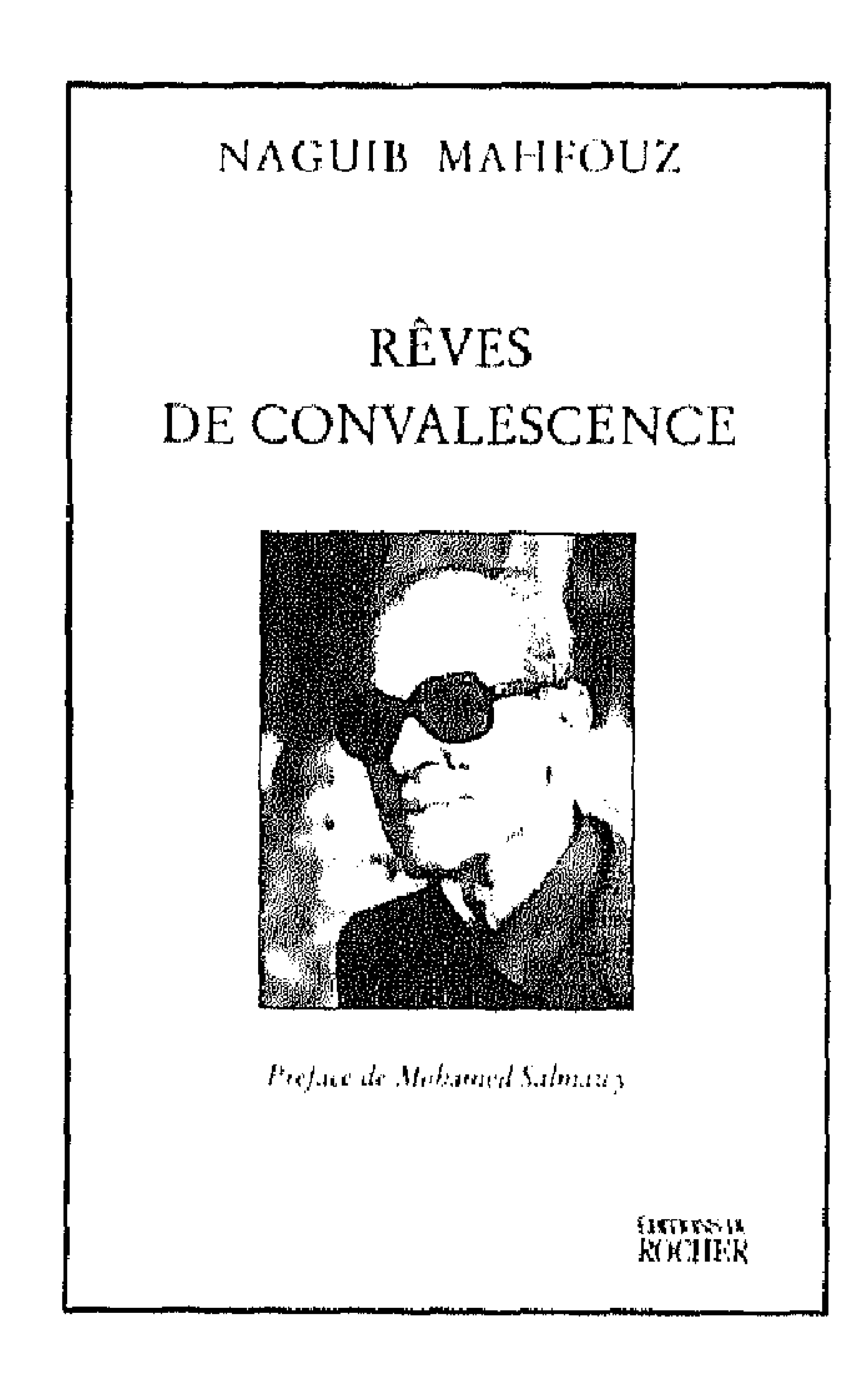
غلاف كتاب «وطنى مصر»، الحاصل على جائزة نادى الكتاب الفرنسى عام ١٩٩٦.



كتاب «نجيب محفوظ فى سيدى جابر» الصادر بالإنجليزية.



غلاف «أحلام فترة النقاهة» وعليه «صورتى».



«أحلام فترة النقاهة» فى طبعته الفرنسية السابقة على الطبعة العربية.



الدكتور حسام موافى فى المؤتمر الصحفى بمستشفى الشرطة.



محمد سلماوى وإبراهيم المعلم فى المستشفى يوم الوفاة.



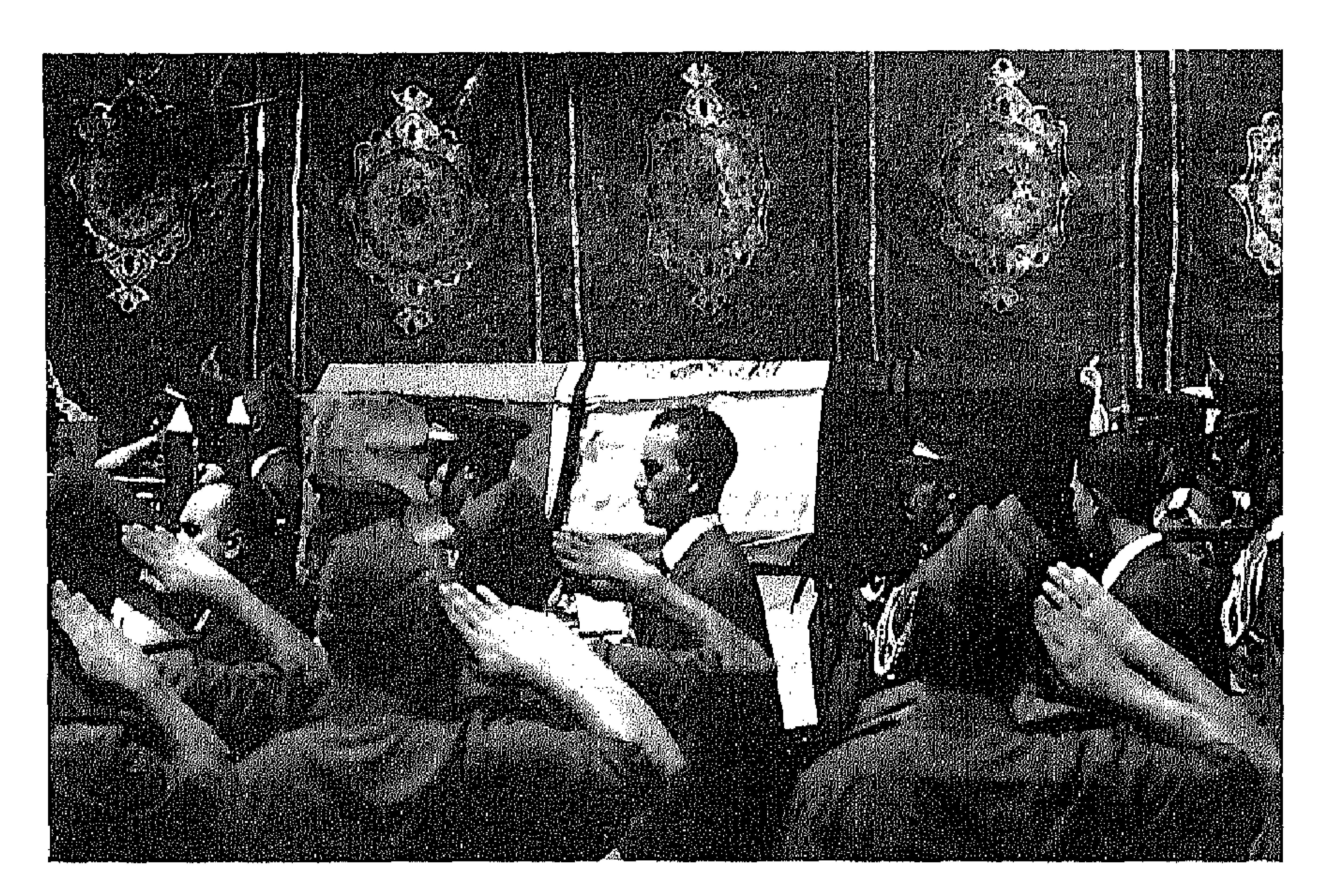
الحرس يُنزلون النعش من السيارة فى مسجد الحسين.



النعش يدخل جامع الحسين وقد أحاطت به الجماهير
التى اخترقت كردون الأمن.



الصلاة على الجثمان فى مسجد الحسين.



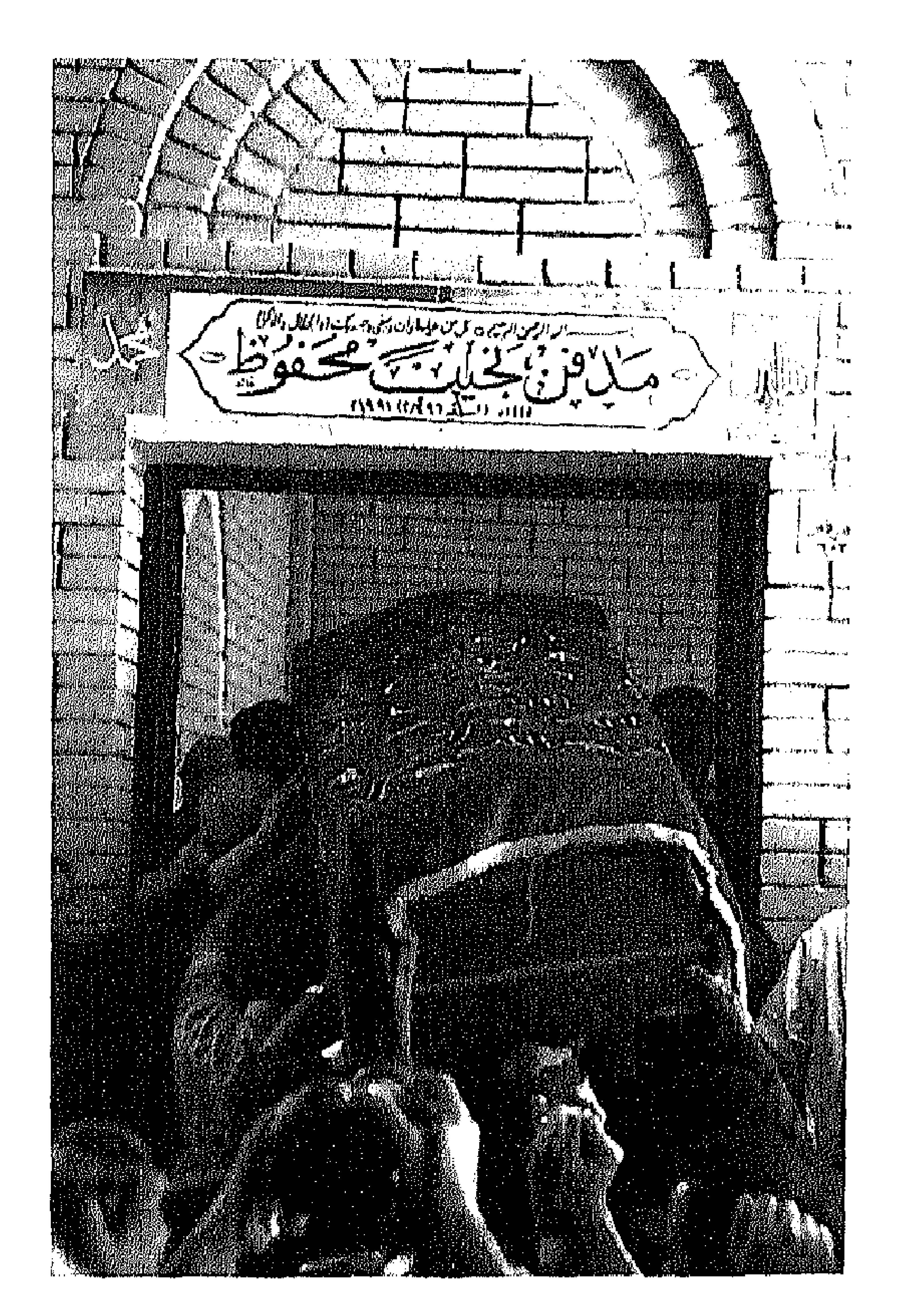
النعش متدثرًا بعلم مصر فى الجنازة العسكرية.



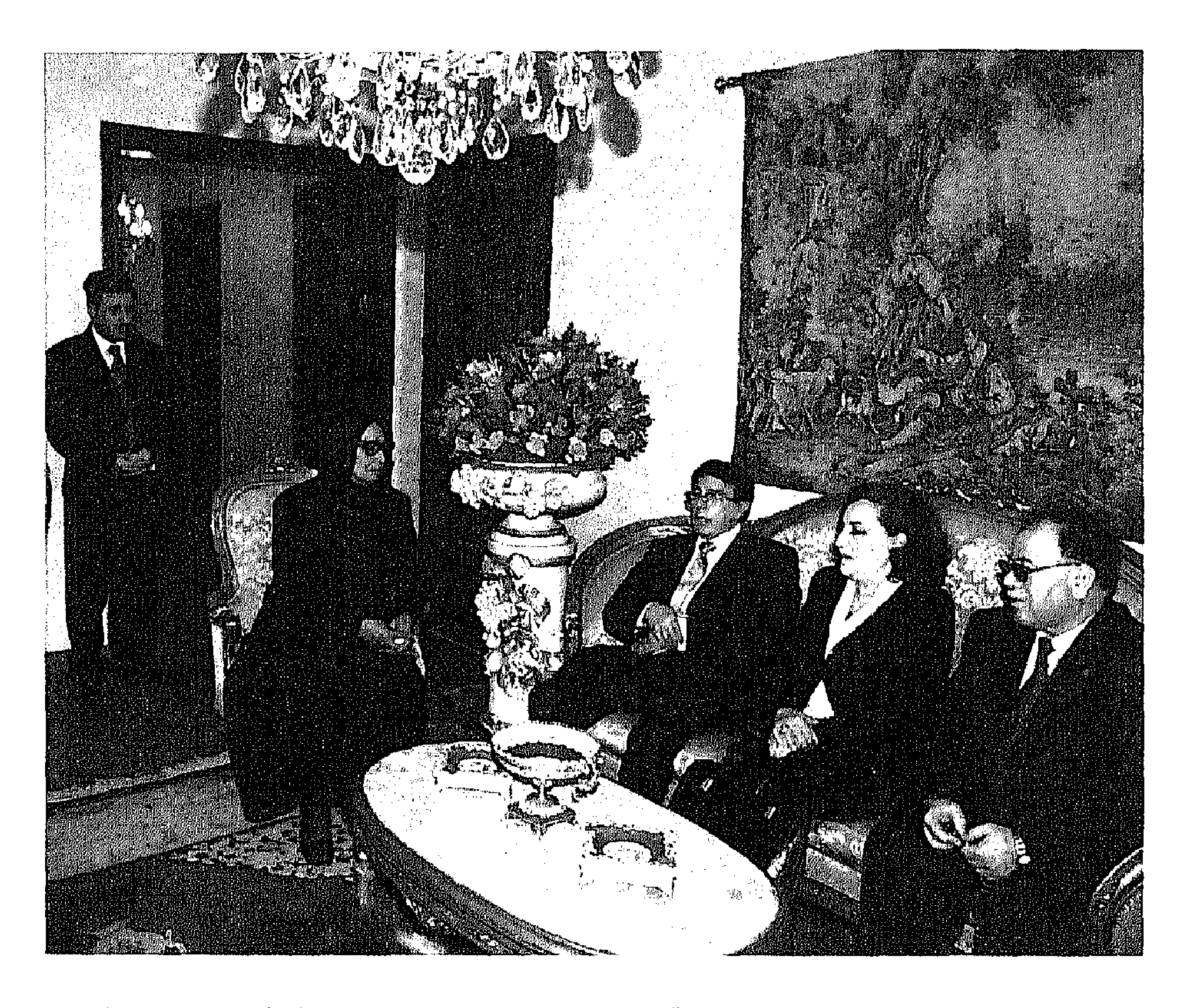
أحمد سعيد يحمل صورة الأستاذ
على صدره فى الحسين.



محمد سلماوى وجمال الغيطانى وحارس محفوظ الخاص
يحملون النعش فى المدفن.



على صوت الطلقات النارية عبر
النعش بوابة المقبرة.



وزير الثقافة السورى والكاتبة كوليت خورى ورئيس اتحاد كتاب سوريا
يقدمون واجب العزاء لزوجة نجيب محفوظ.

نجيب محفوظ

المحطة الأخيرة

هذا الكتاب ليس مجرد يوميات الفترة الأخيرة من حياة الأستاذ نجيب محفوظ، من لحظة دخوله المستشفى يوم الأحد ١٦ يوليو ٢٠٠٦ إلى أن ووري التراب يوم الخميس ٣١ أغسطس ٢٠٠٦، بقدر ما هو محاولة - من خلال هذه اليوميات - لتقديم صورة رجل لم يكن كمثله أحد، لا فى أخلاقه السامية، ولا فى شخصيته الفريدة، ولا فى إنجازه الأدبى غير المسبوق.. هو محاولة لتقديم رؤية صادقة للرجل من خلال علاقة ممتدة جمعتنى به منذ قابلته أول مرة فى السبعينيات، وحتى حملت نعشه على كتفى بعد ذلك بأكثر من ثلاثة عقود.

محمد سلماوى





دار الشروق
www.shorouk.com